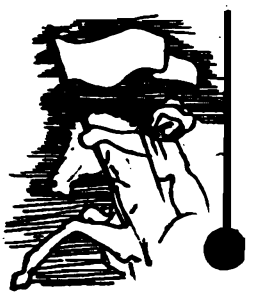

دُهَاةُ العَرَبِ فى الإسلام

« ١ »

معاوية بن أبى سفيان للرُّوبة

«هذا كِسْرى العرب !»

[عمر بن الخطاب]

الرأى والشجاعة

الرأىُ قبلَ شجاعـةِ الشُّجْعَـانِ
هُوَ أوّلٌ وهـىَ المحَـلّ الثـــانى
ولَرُبّمَـا طعـنَ الفتـى أقرانـــه
بالـرأى قبـل تطاعُـــنِ الأَقرانِ

[أبو الطيب المتنبى]

معاوية بن أبى سفيان فى سطور

(٤٠ ـ ٦٠ هـ = ٦٦٠ ـ ٦٨٠ م)

هو معاوية بن أبى سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد مناف القرشى الأموى أمير المؤمنين .

أسس الدولة الأموية التى دان لها المسلمون زهاء ، ثمانين سنة (٤٠ ـ ١٢٢ هـ) .

وهو ينتسب إلى أمية ، وكان «أمية» من سادات قريش فى الجاهلية ؛ وكان فى الشرف والرفعة كما كان عمه هاشم بن عبد مناف ، لهذا لا نعجب إذا تنافس هذان البطنان رياسة قريش مما أدى إلى قيام العداء بينهما فى الجاهلية والإسلام .

وكان أمية تاجراً كثير المال والعِيال ، فكان له عشرة أولاد امتازوا بالشرف والسيادة منهم : حرب ، وسفيان ، وأبو سفيان ، وكان «حرب بن أمية» قائد قريش يوم الفِجار ، كما قاد أبو سفيان قريشاً فى حروبها ضد النبى ـ ﷺ ـ ، وهو صاحب العِير القادمة من الشام إلى مكة التى وقعت من أجلها موقعة بدر الكبرى .

وكان رئيس الجيش النافر وقتئذ لحماية قريش «عتبة بن ربيعة» بن عبد شمس جد معاوية لأمه ، فكان أبوه صاحب العير ، وجده صاحب النفير ، وبهما يضرب المثل ، فيقال للخامل : «لا فى العير ولا فى النفير»[1] .

ولد قبل الهجرة بخمس عشرة سنة[2] ، وأسلم يوم الفتح هو وأبوه وأخوه يزيد وأمه هند ، وله من العمر ثلاث وعشرون ، واتخذه الرسول ـ ﷺ ـ كاتب رسائله .

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد [ج ١ ص ١١٠] .

(٢) تاريخ الإسلام السياسى د . حسن إبراهيم جـ ١

ولما فتحت مكة فى السنة الثامنة من الهجرة أراد أبو سفيان أن يمنع الأذى والمذلة عن قومه ، وبلّغ العباس رغبته إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فأمر منادياً بمكة :

«من أغمد سيفه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، وبذلك سوى الرسول ـ ﷺ ـ بين بيت أبى سفيان وبيت الله»[1] ! فى وجوب الأمن لمن دخله آنئذ .

وهو شرف عظيم لم ينله أحد مثله .

فليس عجيباً إذا أسلم كثير منهم ، وأخذوا يعملون على نشر الإسلام ، ومدّ فتوحاته ، فأبلوا فى حروب الردة بلاء حسناً وسار بعضهم إلى الشام ، فاشتهر أمرهم وعظم ذكرهم ! ومنهم «يزيد بن أبى سفيان» الذى ولاه «أبو بكر» قيادة أحد الجيوش الأربعة التى أنفذها لفتح الشام .

وولاه عمر «دمشق» كما ولى أخاه «معاوية» ما وليها من البلاد الشامية ، فلما مات يزيد أضاف «عُمَر» إلى «معاوية» ما كان لأخيه .

ولما ولى «عثمان» الخلافة ، ولاه الشام كلها ، وظل على ذلك حتى قُتِل عثمان ، فاستقل «معاوية» بالشام .

ولما بويع « علىٌّ » بالمدينة امتنع « معاوية » من المبايعة له متّهماً إياه بالمَوادة فى أمر عثمان ، وإيوائه قَتَلَته فى جيشه ، وعدم القصاص منهم .

وبايعه أهل الشام على المطالبة بدم عثمان ومحاربة علىٍّ ؛ مما أحدث الخلاف والشقاق بين أهل العراق وأهل الشام ، أو بعبارة أخرى بين المسلمين كافة !

وقُصارى القول : أن بيت عبد شمس انتقل من سيادة فى الجاهلية إلى سيادة فى الإسلام .

◄ معاوية يفرض سلطانه بدهائه وسياسته :

نال معاوية الخلافة بحد السيف تارة ، وبالمكيدة والسياسة تارة أخرى .. فقد دعا المسلمون إلى الحسن بن علىّ بعد قتل أبيه ، واستخلفوه ؛ إلا أن خلافته لم

---

(١) المصدر السابق [جـ ١] .

تثبت أمام قوة معاوية ، وما كان من رواج الإشاعة بانهزام جيوش الحسن أمام جند الشام مما أدى إلى تخلّى أهل العراق عنه !؛ فلم يجد بُدًّا من النزول عن الخلافة حقناً لدماء المسلمين .

على أن الدافع الحقيقى الذى حدا بالحسن إلى النزول إنما يرجع ـ على ما ذهب إليه اليعقوبى ـ فى تاريخه[1] ـ إلى أنه أصبح لا قِبَل له بمعاوية وجنده ؛ فعقد معه صلحاً نزل له فيه عن حقه فى الخلافة ، على أن يكون الأمر شورى بين المسلمين يُوَلّون عليهم من أَحَبُّوا ، وبذلك أصبح معاوية صاحب السلطان فى كافة الولايات الإسلاميّة .

وفى الخامس والعشرين من ربيع الثانى سنة ٤١ هـ دخل معاوية الكوفة[2] حيث أخذت له البيعة بحضور الحسن والحسين ، ورحل الحسن بعد ذلك إلى المدينة ، ولزم منزله حتى مات[3] .

▣ عودٌ عَلى بَدْءٍ !! ▣

◄ سياسة عثمان ـ رضى الله عنه ـ الخارجية والداخلية ، وما كان من المتغيرات على الساحة العربية :

يقول المؤرخون : إنه بعد اثنى عشر عاماً من وفاة النبى ـ ﷺ ـ تولى الخلافة عثمان ـ رضى الله عنه ـ عقب صاحبى الرسول ـ ﷺ ـ: أبى بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ وإذا كانت الفتوحات قد بلغت أقصاها فى عهد عمر ـ رضى الله عنه ـ، فإن المحافظة على هذه الفتوح وتثبيت دعائمها كان شغل «عثمان» ـ رضى الله عنه ـ الشاغل بعد أن ثار الفُرس ، وحاول الروم استعادة ما أخذه المسلمون منهم من أرض !

وقد نجحت **سياسة «عثمان» الخارجية** حيث أرسل إلى : **الفُرس** واليه على

---

(١) تاريخ اليعقوبى [جـ ٢ ص ٢٥٤] .

(٢) المسعودى : مروج الذهب [جـ ٢ ص ٣٦] .

(٣) اختلف المؤرخون فى سبب وفاة الحسن وتاريخ موته على ما جاء فى كتاب البدء والتاريخ للمقدسى .

البصرة : «عبد الله بن عامر» فانتصر عليهم وشتّتهم وأخضع البلاد كلها بل تقدم حتى نهر « جيحون » .

أما الروم فقد قام «معاوية بن أبى سفيان» واليه على الشام بردهم إلى ما وراء جبال «طوروس» مستمراً فى تقدمه حتى بلغ «أرمينيا» .

ونجح أسطول المُسْلمين البحرى فى تأمين الشواطىء الإسلامية ، وألقى على الروم درساً لا ينسى حين حاولوا استعادة الأسكندرية بعد عزل عمرو بن العاص .

حيث تصدى لهم أسطول معاوية ، وأسطول عبد الله بن أبى السرح والى مصر آنئذ فى موقعة «ذات الصوارى» ، وانتصر على الروم انتصاراً ساحقاً تغير بعده الموقف فأصبح أسطول الروم مدافعاً ، واتخذ أسطول المسلمين موقف المهاجم ، فاستولى على جزيرتى : «رودس» و «قبرص» .

أما فيما يتعلق **بالسياسة الداخلية** فقد واجهته صعوبات شتى : على رأسها تشتيت قوى العرب فى الإمبراطورية حيث رابطوا فى أطرافها مدافعين عنها ضد الثورات والأعداء الأجانب .

هذا إلى جانب اختلاف سياسة عثمان عن سياسة عمر ، فقد كان عثمان ـ رضى الله عنه ـ ليّناً بينما ألف الناس شدة عمر ، وخاصة عندما تقدمت السن بعثمان حيث أصبح على مشارف الثمانين .

وكان عمر قد أبقى سادة قريش بالحجاز تحت رقابته ، أما عثمان فقد سمح لهم بسكنى الأمصار ، وتملّك الأرض واستثمار الأموال .

وإلى جانب هذا وذاك قرّب عثمان ـ رضى الله عنه ـ أهله وبوأهم المناصب الكبرى ، وخاصة ولاية الأقاليم ، وكان بعض هؤلاء الولاة دون المستوى فأساء إليه بما حُسب عليه ولم يجد عثمان من يمحضه النصح من بطانته ، ويخلص المشورة له كما كان الصحابة ينصحون لعمر وأبى بكر ـ رضى الله عنهما ـ ، فأخذت البلاد تغلى بالسخط ، وراح أعداء الأمة يعملون فى الظلام ،ويصطادون فى الماء العكر ، وكان أشد الأمصار معارضةً للإدارة الحكومية : «الكوفة» و «البصرة» و «مصر» التى تحركت منها وفود إلى المدينة لتتحدث إلى الخليفة

فيما ساءها من أمر ولاتها ، واستقبلهم «عثمان» ـ رضى الله عنه ـ ووعدهم خيراً ، وصرفهم إلى بلادهم .

ولكنهم فى أثناء عودتهم وجدوا رسولاً يتبعهم متجهاً نحو مصر ، فقبضوا عليه ، فإذا هو يحمل رسالة تحمل خاتم الخليفة بقتل أعضاء الوفد كلهم ، وعلى رأسهم زعيمهم : محمد بن أبى بكر واتضح بعد التحقيق أن «مروان بن الحكم» أحد أقرباء عثمان ـ رضى الله عنه ـ من أهل مشورته هو كاتبها ، فطلب الثائرون من عثمان تسليمه لهم فأبى ، فحاصروه أكثر من عشرين يوماً ، وحين شعروا بأن النجدة آتية إليه من بعض الأقاليم هاجموا بيته وقتلوه . وذلك فى عام ٦٥٦ م .

وكان مقتل «عثمان» ـ رضى الله عنه ـ بداية شر عظيم ، فهذه أول مرة يقتل فيها الخليفة فى «شبه ثورة داخلية» ، فمقتل عمر كان فردياً ولسبب خاص . وتلاها أن اختلف الناس فى اختيار الخليفة ، وكانوا من قبل قد اتفقوا فى بيعة الخلفاء الثلاثة الأُوَل على الرغم مما كان من تشعب الآراء فى أول الأمر !

وعندئذ بايع أغلب أهل المدينة علياً عن طواعية إلا أن معظم الأمصار لم تبايعه .

وقد ازداد الموقف سوءاً حين أمر «علىّ» بعزل ولاة عثمان على الأقاليم فما كان من هؤلاء الولاة إلا الوقوف ضده ، وهكذا انقسم المسلمون أقساماً ثلاثة :

١ ـ الثوار الحانقون على سياسة عثمان ، ومنهم المشتركون فى قتله ، وهؤلاء أيَّدُوا علياً إذْ رأَوْا فيه الرجل الذى يستطيع العودة إلى سياسة الشيخين !

٢ ـ جماعة تضم طلحة والزبير والسيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ وهؤلاء ـ على الرغم من أنهم كانوا من معارضى عثمان ـ فكذلك عارضوا عليًّا حيث يرون أنه أخطأ فى قبول الخلافة بهذا الشكل وفى هذه الظروف المضطربة !

٣ ـ ثم الأمويون الذين طالبوا بدم عثمان وهم يهدفون من ذلك إلى نيل الخلافة لأنفسهم .

وإذاً فقد تصدعت الدولة ، وبدأت الحروب الداخلية .

فنشبت المعارك بين علىٍّ وبين حزب طلحة والزبير وعائشة وانتصر فيها علىّ فى واقعة الجمل قرب البصرة فى ٦٥٦م ثم قامت الحرب بين على ومعاوية زعيم

الأمويين عندما انتهى علىّ من موقعة الجمل تفرغ لمعاوية والتقى الجمعان فى صفين فى سنة ٦٥٧ م (٣٧ هـ) .

وحاولوا الوصول إلى حل سلمى ودارت بين الفريقين المناقشات الفِقْهِيّة زمنا ليس بالقصير ولكن معاوية أصر كل الإصرار فكانت الحرب !

وتفانى الفريقان فى المعركة ، وبدأت جيوش معاوية تنهار ، وكادت الهزيمة تلحق بها لولا أن تداركه «عمرو بن العاص» بخدعة ابتكرها :

رفع جُنْد معاوية المصاحف على أسنة الرماح ، ومعنى هذا أنهم يريدون وقف القتال ، وتحكيم القرآن فى هذه الفتنة الكبرى !

وهنا حدث ما أراده «عمرو بن العاص» فقد وقع انقسام خطير بين أنصار «علىٍّ» أنفسهم حيث رأى أكثرهم أنه ليس لمسلم أن يرفض الدعوة إلى تحكيم القرآن بينما رأت الأقلية أن معاوية قد رفض قبول الحلول السلمية قبل الحرب وهو الذى أجبر الناس على القتال فليس له وقد هُزِم أن يطلب الاحتكام إلى ما رفض !

وكان سيدنا علىٌّ يرى هذا الرأى غير أنه نزل عند رأى الأغلبية .

وانتهى هذا الخلاف بخروج الفريق الثانى على علىّ ولذلك سُمّوا «الخوارج» ، وأصبحوا أعداءً للفريقين شعارهم : «لا حكم إلا لله !» .

ويتفق الفريقان على التحكيم ، ويختار علىّ « أبا موسى الأشعرى » ،ويختار معاوية «عمرو بنَ العاص» .

ويقال إن الحَكَمين بعد مشاورات اتفقا على خلع الرجلين كِلَيْهما ، وترْك الأمر لجماعة المسلمين تُوَلّى من تشاء غيرهما . وجاء اليوم المعين فتقدم « أبو موسى » الذى عزل علىًّا ، ثم تقدم « عمرو » فَثَبَّتَ معاوية .

وهنا قوى جانب معاوية وانفض عن الإمام كثير من أنصاره ، وتراخى عنه الكثيرون ، ودَبّ الضعف فى جيشه بعد انشغاله بحروبه العديدة مع الخوارج !

وبويع معاوية فى الشام وأصبح للدولة الإسلامية خليفتان وما لبث معاوية أن ضم إليه مصر ، ووعد عمراً بها إن آلت إليه الخلافة مقابل مساعداته ! وقد أصبح عمرو يشكل خطراً حقيقياً على جبهة الإمام بعد انحيازه إلى معاوية .

وبقى سيدنا «على» فى الكوفة يحاول جمع شتات هذه الدولة حتى اغتاله عبد الرحمن بن ملجم الخارجى عام ٦٦١ م- ٤٠ هـ ولم يمتد حكمه فوق الأربعة أعوام إلا قليلاً ، وبذلك خلص الأمر لمعاوية . ونعود إلى معاوية لنعرض صوراً من حياته وسلوكه عندما كان والياً على الشام ..

▣ عمر يتعهد معاوية ويقومه ! ▣

بخ بخ يامعاوية !!

قال ابن المبارك فى كتاب الزهد بسنده عن أسلم مولى عمر ؛ قال : قدم علينا معاوية ، وهو أبَضُّ الناس[1] وأجملهم ، فخرج إلى الحج مع عمر بن الخطاب .

وكان عمر ينظر إليه ، فيتعجب منه ، ثم يضع إصبعه على جبينه ، ثم يرفعها عن مثل الشراك[2] ، فيقول : «بَخٍ بَخٍ[3] ، إذاً نحن خيرُ الناس ، أن جُمِعَ لنا خير الدنيا والآخرة .

فقال معاوية : ياأمير المؤمنين ، سأحدثك ؛ إنّا بأرض الحمامات والريف .

فقال عمر :سأحدثك ، مابك إلطافك نفسك بأطيب الطعام ، وتصَبُّحك حتى تضرب الشمس مَتْنَيْك ، وذوو الحاجات وراء الباب !!

قال : قد جئنا ذا طُوىً ، فأخرج معاوية حُلّةً فلبسها ؛ فوجد عمر منها ريحاً كأنه طيب ؛ فقال : يعمد أحدكم فيخرج حاجًّا تَفِلاً[4] ، حتى إذا جاء أعظم بلدان الله حرمةً أخرج ثوبيه كأنهما كانا فى الطيب فلبسهما ، فقال له معاوية : إنما لبستهما لأدخل على عشيرتى ياعمر ؛ والله لقد بلغنى أذاك هٰهنا وبالشام ، فالله يعلم أن لقد عرفت الحياء فى عمر ! ؛ فنزع معاوية الثوبين ، ولبس ثوبيه اللذين أحرم فيهما[5] .

---

(١) أكثرهم امتلاء ونضارة .

(٢) الشراك : سير النعل على ظهر القدم .

(٣) كلمة مكررة تقال عند الإعجاب !

(٤) التَّفِل : الذى قد ترك استعمال الطيب، من التفل ، وهو الريح الكريهة .

(٥) قال ابن حجر فى الإصابة : وهذا سند قوى .

▣ درس فى التواضع ▣

ولا عجب فى متابعة عمر لمعاوية فقد تعهده منذ أسلم وانضم إلى كتيبة العمل. أخرج ابن سعد عن عمرو بن يحيى بن سعيد عن جده قال : دخل «معاوية» على «عمر بن الخطاب» ، وعليه حُلّة خضراء ، فنظر إليه الصحابة ، فلما رأى ذلك «عمر» قام ومعه الدِّرة فجعل ضربا بمعاوية ، ومعاوية يقول : الله الله ياأمير المؤمنين ! فيم ! فيم !

فلم يكلمه حتى رجع فجلس فى مجلسه ؛ فقالوا له : لم ضربت الفتى ، وما فى قومك مثله ؟!

فقال : ما رأيت إلا خيراً ، وما بلغنى إلا خير ، ولكنى رأيته ـ وأشار بيده ـ يعنى إلى فوق ، فأردت أن أضَع منه !

▣ موكب معاوية عند قدوم عمر إلى الشام !! ▣

وظل عمر لا يكف عن محاولاته مع معاوية ، وغيره ؛ فقد .. كان عمر ـ رضى الله عنه ـ يحظر على الولاة مظاهر الخُيَلاء والأبهة التى تبعد ما بينهم وبين الرعية ، ولكنه ينظر فى أعذارهم فيقبلها أو يُغْضى عنها حيثما توقف صلاح الولاية على ذلك .

قدم إلى الشام راكباً على «حمار» ، فتلقاه عامله معاوية بن أبى سفيان فى موكب عظيم !

فلما رآه معاوية نزل وسلّم عليه بالخلافة ، فمضى فى سبيله ولم يرد عليه سلامه ! ، فقال له عبد الرحمن بن عوف :

أتعبت الرجل ياأمير المؤمنين ، فلو كلمته ؟! فالتفت إذْ ذاك إلى «معاوية» وسأله : إنك لصاحب الموكب الذى أرى ؟! قال : نعم .

قال : مع شدة احتجابك ووقوف ذوى الحاجات ببابك ؟! قال : نعم . قال : ولِمَ ويْحَك ؟!

قال : لأننا ببلاد كثر فيها جواسيسُ العدو ، فإن لم نتخذ العدة والعدد ، استخف بنا وهجم علينا .

وأما الحجاب فإنا نخاف من البذْلة جرأة الرعية ، وأنا بَعْدُ عاملُك ، فإن استنْقَصْتنى نقصت ، وإن استزَدْتُنى زِدت ، وإن استوقفتنى وقفت !

فقال عمر : «ما سألتك عن شيء إلا خرجتَ منه ، إن كنت صادقاً فإنه رأى لبيب . وإن كنت كاذباً فإنها خدعة أريب . لا آمرك ولا أنهاك»[1] .

◄ بداية التحرك :

وواصل معاوية مسيرته بعد عمر على طريقته ففى عهد عثمان راح معاوية يعمل على أن يجعل الشام تحت أمره لا تعرف لها حاكماً سواه ، واستطاع فى تلك الفترة أن يكوّن نفسه ويثبت أقدامه ، ويستعد لمواجهة حاسمة ! عندما بويع «على» ـ رضى الله عنه ـ.

فلما قتل عثمان ، وبويع على كان الأوان قد آن ليبدأ دور معاوية على مسرح الأحداث فى الجبهة المناوئة لعلى . ويصور ابن قتيبة بداية ذلك التحرك فى خلال الفتنة بقوله :

«قدم معاوية بن أبى سفيان فى «خلال الفتنة» من «الشام» إلى «المدينة» ، فأتى مجلساً فيه على بن أبى طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعمار بن ياسر ، فقال لهم :

يامعشر الصحابة ، أوصيكم بشيخى هذا خيراً ، فوالله لئن قُتِل بين أظهركم لأملأنّها عليكم خيلاً ورِجَالاً .

ثم أقبل على «عمار بن ياسر» ، وكان من أشد الثائرين على عثمان ، فقال له : ياعمار ، إن بالشام مائة ألف فارس ، كلهم يأخذون العطاء مع أبنائهم وعُبْدانهم ، لا يعرفون عليًّا ولا قرابته ، ولا عماراً ولا سابقته ، والزبير ولا صحابته ، ولا طلحة ولا هجرته ، ولا يهابون ابن عوف ولا ماله ، ولا يتقون سعداً ولا دعوته ، فإياك ياعمار أن تقع فى فتنة تنجلى ، فيقال : هذا قاتل عثمان ،

---

(١) عبقرية عمر للعقاد .

وهذا قاتل على »[1] .

◄ بداية سلسلة من المعارك :

وفى ضوء هذا الاستعداد عارض معاوية خلافة علىّ ، ووجد العذر الذى يُبْديه ، وهو ولاية دم عثمان ، وأن عليًّا تهاون فى الدفاع عن «عثمان» ، وآوى قتلته !

وبدأت سلسلة من المعارك أهمها «صِفِّين» التى هزم فيها معاوية فى ميدان القتال كما أشرنا إلى ذلك من قِبل ، لكنه انتصر فى ميدان الحنكة والسياسة والدهاء !

◄ ما بعد معركة صِفِّين !

وبعد معركة صِفين قامت عدة معارك انتقص فيها ملك خصمه ، وضيِّق عليه ، وكان «على» يعانى عناد «خصمه» وقوته ، ويعانى عناد «الخوارج» وقوتهم ، ويعانى فى العراق تمرد « أتباعه » ونفاقهم وقعودهم عن نصرته ، كما أشرنا إلى ذلك .

وفى نفس الوقت كان معاوية مسموع الكلمة يعلو شأنه السياسى من يوم إلى يوم .

◄ الراحة الكبرى :

واستراح على من هذه المشكلات عندما طعنه « ابن ملجم » طعنة قاتلة ، وخلا الأمر بعدها لمعاوية !!

◄ محاولة سرعان ما انطفأت !

وبعد مقتل «على» قامت محاولة ضئيلة ترمى إلى البيعة للحسن بن على ، أو قل إنه قد بويع فعلاً من بعض الشيعة ، ولكن هذا سرعان ما انطفأ فى نفس الحسن ، حينما أشيع أن قائده «قيس بن سعد بن عبادة» قد قتل ، فإذا ببعض أهل العراق ينكثون عهده !

---

(١) الإمامة والسياسة [جـ ١ ص ٣١] . الطبعة الأولى سنة ١٩٠٩ م

ولم يكن أمام «الحسن» ـ رضى الله عنه ـ إلا أن يقنع بشروط اشترطها لنفسه ، ولذويه متعهداً بالتنازل عن حقه فى الخلافة إذا قبل معاوية هذه الشروط

وقد كان معاوية مستعداً ـ بما وُهب من دهاء ـ أن يَعِد بأى شىء نظير تنازل الحسن !

ولذلك يقال : إنه عندما عرف ميل الحسن للصلح على أساس التنازل نظير شروطه ، أرسل إليه صحيفة بيضاء موقعة منه ؛ ليكتب فيها ما يشاء من شروط !!

وتم الصلح على هذا الأساس ، وتنازل الحسن لمعاوية وأعلن أنه سامع له مطيع !

◄ عام الجماعة :

ودخل معاوية الكوفة بعد ذلك (ربيع الثانى سنة ٤١ هـ) حيث التقى الحسن ومعاوية ، وبايع الناس معاوية ، وبايع معهم الحسن والحسين ، وسمى ذلك العام «عام الجماعة» لاجتماع الناس فيه على خليفة واحد ، وعاد «معاوية» بعد ذلك إلى «دمشق» حيث اتخذها عاصمة للخلافة بعد أن كانت عاصمة إمارته ، وعاد الحسن وأسرته إلى المدينة ، وبقى بها حتى توفى سنة خمسين أو إحدى وخمسين .

ويقال إنه توفى مسموماً !!

وروى أن الحسين حاول معه أن يخبره عمن سقاه ، فأجاب : «الله أشد نقمة إن كان الذى أظن ، وإلا فلا يقتل بى برىء»[1] .

(١) السيوطى ؛ تاريخ الخلفاء [ص ١٩٢] .

▣ الساحة العربية بين ورع علي ودهاء معاوية ! ▣

ألا ما أبعد الفرق بين ما شهدته الساحة العربية بين «علي» و «معاوية» ـ رضى الله عنهما ـ فبينما يتجلى الورع والتقوى فى مواقف «علي» يتراءى لنا دهاء «معاوية» وتدبيره ! فإننا نرى الإمام علياً حينما لم يجد بُدًّا من لقاء معاوية فى معركة «صِفّين» يستقبل جيشه ليلة المعركة خطيباً فيقول : «ألا إنكم مُلَاقُو القوم غداً .. فأطيلوا الليلة قيامكم وصلاتكم ، وأكثروا تلاوة القرآن ، وسَلُوا اللهَ الصبر والعفوَ والعافية» .

إنه يحدثهم حديثاً يختلف عن كل الأحاديث التى تتطلبها أمثالُ هذه المناسبة ، فلا يَعِدهم ولا يُمنّيهم .

وحتى وهو يكتب إلى «عمرو بن العاص» الذى انحاز إلى صف «معاوية» ، وبات يشكل خطراً حقيقياً على جَبْهَة الإمام إنه لا يُمَنِّيه بدُنياً يُصيبها ، ولا يستميله إلى هوًى كما كان يفعل «معاوية» لاكتساب الأنصار !!

بل يناشده تقوى الله فيقول فى كتابه إليه : «من عبد الله على أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص ..

أما بعد .. فإن الدنيا مَشْغَلة عن غيرها ، وصاحبها مقبور فيها ، ومَنْهُوم عليها .. لم يُصَب منها شيءٌ قط إلا فتحت له حرصاً ، وإلا أدخلت عليه مئونة تزيده رغبة فيها .. ولن يستغنى صاحبها بما ناله عما لم يبلغه ، ومن وراء ذلك فراق ما جمع !

والسعيد من وُعِظ بغيره ، فلا تُحبط أجرك أبا عبد الله ، ولا تُجارينَّ «معاوية» فى باطله ، فإن «معاوية» غمص الناس[1] وسَفه الحق !! »

لا مساومة .. ولا مداجاة .. ولا التواء .. ولا مكر .. ولا دهاء بل صفاء ونقاء وصدق واستقامة . إن حِدّةَ ذكائِه ، واتّقادَ بصيرته لو شاء لأعطياه من الدهاء ما أراد !!

---

(١) غمص الناس : حقرهم واستصغرهم ولم يرهم شيئاً .

ولكنه تخلى عن مواهب الرجل «الداهية» وأحَلّ مكانها كلّ مواهب الرجل «الوَرع» !! ترى هل يكفى الورع مع الدُّهَاة !؟

سؤال يجيب عنه معاوية :

وكثيراً ما نتساءل : بم انتصر معاوية ؟ ويجيب معاوية ، فيقول : أُعِنْتُ علىَ عَلِيٍّ بثلاث خصال :

* كان رجلاً يُظهر سرَّه ، وكنت كَتُوماً لسِرّى .

* وكان فى أخبثِ جُنده ، وأشدِّه حلافاً ، وكنت فى أطوع جند ، وأقله خلافاً[1] ، وخلا بأصحاب الجمل ، فقلت : إن ظفر بهم ، اعتددت بهم عليه . وإن ظفروا به كانوا أهون علىَّ شوكة مِنْه .

* وكنت أُحَبّ إلى قريش منه ، فكم شتيتٍ جامع إلىّ ومفرق عنه !

◄ حال الأمة عند تولى معاوية :

أشرنا من قبل إلى أن الأمة الإسلامية كانت عند تولى معاوية ثلاثة أحزاب :

١ ـ شيعة بنى أمية من أهل الشام وغيرها من سائر الأمصار الإسلامية ، وخاصة مصر ؛ وكانوا يرون الخلافة فى قريش ، وأن أهل البيت الأموى أولاهم بها .

٢ ـ شيعة على بن أبى طالب ؛ وكانوا ببلاد العراق ، وقليل منهم بمصر ، وهؤلاء يرون الخلافة فى قريش أيضاً ، وأن أحق الناس بها على بن أبى طالب وأولاده من بعده .

٣ ـ الخوارج ، وهم أعداء الفريقين ، يستحلون دماءهم ، ويرونهم خارجين على الدين ، وقد كانوا يرون أن الخلافة حق لكل مسلم مادام كفؤاً لا فرق فى ذلك بين قرشى وغير قرشى .

---

(١) وللجاحظ فى هذا الشأن تعليل بديع . قال :

العلة فى عصيان أهل العراق على الأمراء ، وطاعة أهل الشام : أن أهل العراق أهل نظر ، وذوو فطن ثاقبة ، ومع الفطنة والنظر يكون التنقيب والبحث ، ومع التنقيب والبحث يكون الطعن والقدح والترجيح بين الرجال ، والتمييز بين الرؤساء ، وإظهار عيوب الأمراء ، بخلاف أهل الشام .

وقد استمر الكفاح والجلاد بين الأمويين والهاشميين على امتداد الدولة الأموية حتى تغلب الآخرون فى النهاية وقامت دولة «بنى العباس» بعد «دولة بنى أمية» التى أقامها معاوية .

فكيف تسنى لمعاوية أن يتغلب على عدوه من شيعة على والخوارج ، وعلى يد من كان إحباط محاولاتهم الدائبة للانقضاض على دولته ؟

لقد كان فى العراق داهيتان قاما بالمهمة خير قيام أولهما : المغيرة بن شعبة ومن بعده زياد .. وكان معاوية قطب الرحى ! أو الرأس المدبر وهما الجناحان ! .

▣ حسن إدارة معاوية ▣

عندما تولى الأمر معاوية ، ساعده على حسن إدارة المُلْك سابقة له من تجربة طويلة ، ابتدأت عندما ضمه الرسول ـ ﷺ ـ إلى كُتَّابِه يشهد روعة الرسالة ، فتثقف على أتم ما يكون من الكمال .

ورأى منه أبو بكر وعمر ما رآه منه صاحبهما من الكفاية والمقدرة ، فولى الشام «عشرين سنة» تمرس خلالها بالسياسة ، واتسع أمامه أفق جديد من النظر ، فأدهش من تولى أمرهم بحلمه ، وعلمه ، وثاقب رأيه ، وفرط دهائه .

وكان أبوه من قبل يعالج شئون الناس ، ويتألفهم ، ويعرف ما يصلحهم ، وعنه أخذ معاوية شيئاً فى هذا المعنى ، والناشىء فى مثل هذه الأعمال يتحنك فى الإدارة ، ويكون إماماً فى صناعته .

ويقول الأستاذ محمد كرد على فى كتابه : الإسلام والحضارة العربية : «حافظ معاوية على أصول الرسول ـ ﷺ ـ والراشدين فى الإدارة وما حاد عنها إلا فيما قضت به المصلحة ، ودعا إليه المحيط الجديد ، مثل إخراج الإدارة من سذاجة البداوة إلى بُحْبُوحة الحضارة ؛ وعرف فوائد الشورى ، فما كان يصدر فى المهمات إلا عن مشورة ، فهو يرى من الطبيعى أن يأخذ بآراء أشراف القوم ، وينزل على حكم وفود البلاد»[1] .

(١) خطط الشام للأستاذ محمد كرد على .

وله ولآل بيته مجالس يعقدونها فى المسجد الجامع ، تدور بحوثها على سياسة البلاد وحكمها فى الأكثر ، ومجالس الأمويين أشبه بمجالس النواب والولايات والشيوخ .

◄ كيف كان يواجه المشكلات ؟

وكان معاوية يفض مشاكله بالحسنى ، يلين للناس ، ويُشْفع المجاملة بالإحسان لكل نابه فى قومه مُسَوّد فى أهله . ولا تلين قناته لمن يحاول قلب الخلافة وإخراجها عن بيته بعد أن آلت إليه . وما كان مع من يظلم رعاياها إلا شديداً .

◄ كيف عمل على استمالة القلوب ؟

كان يستميل القلوب بالعطاء وبالإقناع ، أو بالإغضاء أو بالمجادلة بالتى هى أحسن .

وبلغ من سعة الصدر ووافر الحلم أن ضرب المثل بحلمه ، وكان إذا لم تنجع فى الناس وسائله اللينة يعمد بعد التماس كل حيلة إلى القوة .

وهو القائل : «لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى !! ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت» .

وقيل له : وكيف ذاك ؟

قال : «كنت إذا مدوها خلّيتها ، وإذا خلّوها مددتها» .

وقال : «إنى لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا» . ومن المستحيل كمّ الأفواه أو تنطق بما يراد ، ورضا الناس غاية لا تدرك ، فما دام الأمر يُفضُّ بالكلام ، ولا يقوم رجل جد يقلقل أمر الجماعة فالعالم أحرار فى أقوالهم .

ومتى لجئوا إلى القوة ، وأشرفوا على الفتنة انكفأ عليهم بقوته .

وهمتُه منذ تولى الحكم مصروفةٌ إلى سياسة الدولة ، وما عدا ذلك فالناس وما يختارون من الآراء والمذاهب .

وهو يستشير أرباب الرأى من أنصار دولته ، ولا يأتمن فى إدارة الولايات والأعمال إلا الكُفاةَ من آل بيته ، فإذا اتفق أن كان فلان ينزع إلى كذا ، أو يحب

فلاناً من خصومه ، أو يُغْلظ فى بيان رأى يخالفه ، فهذا مما لا يتعلق به كبيرُ أمرٍ عنده .

ومن أجل توطيد دعائم السياسة التى حصر فيها همَّه لجأ إلى طرق فى الدعوة مؤثرة : فجعل القُصَّاص أو الوُعّاظ فى المساجد والمعسكرات يدعون لدولته ، ويُنَفّرون من أعدائها .

ولما رأى علياً عند مُنصرفه من صِفّين قنت فى الصلاة ودعا على من خالفه ، فوقع فى نفس معاوية أن تكون المعاملة بالمثل ، وأمر من يَقصُّ بعد الصبح وبعد المغرب أن يدعو له ولأهل الشام ، وحمل الأمصار على احتذاء مثاله فى عاصمته ، فأحدث قصص الخاصة .

وظل قصاص العامة يجتمع إليهم النفر من الناس ، يعظونهم ، ويذكرونهم ، ويقصون عليهم ما يرق قلوبهم .

واقتفَى معاوية فعل عمر بن الخطاب فى العلم بأخبار رجاله ورعيته فانتظم له أمره .

وكان معاوية إذا أراد أن يولى رجلاً من بنى حرب ولاه الطائف ، فإن رأى منه خيراً ، وما يعجبه ولّاه مكة معها ، فإن أحسن الولاية ، وقام بما ولى قياماً حسناً جمع له معهما المدينة . فكان إذا ولى رجلاً قيل : هو فى أبى جاد ، فإذا ولاه مكة قيل هو فى القرآن ، فإذا ولاه المدينة قيل هو قد حذق[1] .

هذا هو معاوية فى إدارته يتجلى لنا دهاؤه وحسن سياسته .

◄ وصيته إلى أحد أقاربه :

كما يتجلى ذلك أيضاً فى وصاياه وخطبه : أوصى أحد أقاربه ممن استعمله فقال : «لا تبيعن كثيراً بقليل ، وخذ لنفسك من نفسك ، واكتَفِ فيما بينك وبين عدوك بالوفاء تَخِفّ عليك المؤنة وعلينا منك . وافتح بابك للناس» .

---

(١) تاريخ الطبرى . والحذق : المهارة ، وخطوات التعليم السابقة كانت تبدأ بتعلم حروف الهجاء الأبجدية العربية أبجد هوز .. إلخ ، ثم حفظ القرآن وفهمه وتدبره ، ثم مدارسة علومه لكى يصبح حاذقاً .

وقال لآخر : «إذا أعطيت عهداً فَفِ[1] به . ولا تُخْرِجَن منك أمراً حتى تُبرمه ، فإذا خرج فلا يُرَدَّنَّ عليك .

ولا تُطمعن أحداً فى غير حقه ، ولا تُؤْيِسَنّ أحداً من حق له» .

لقد وضع معاوية الأساس لحكم مستقر ، فكان لا يستعمل من الولاة إلا من ثبتت كفايته ونجدته فى تأييد سلطانه وكانت القواعد التى يضعها لعماله فيها شىء من الأساليب لكف الناس بعضهم عن بعض ، وإرضاء كل واحد بحقه ، وتوفير ثقة الرعايا بولاتهم .

▣ معاوية والدنيا !! ▣

لما قدم «معاوية» المدينة خطب الناس فقال :

«إن «أبا بكر» ـ رضى الله عنها ـ لم يرِدِ الدنيا ولم ترِدْه !

وأما «عمر» ، فأرادته الدنيا ، ولم يُردها !

وأما «عثمان» فنال منها ، ونالت منه !

وأما «أنا» فمالت بى ، ومِلْتُ بها ..

وأنا ابنها .. ؛ فهى أمى !

فإن لم تجدونى خيرَكم فأنا خيرٌ لكم» .

ثم نزل !!

وهكذا يرى معاوية أن الدنيا مالت به : لكنه هو الآخر مال بها !

وقد يكون هناك فى رأى الآخرين من هو خير منه !

لكنه على كل حال خيرٌ لهم فى تلك الظروف ليجمع شتاتهم ،ويوحّد كلمتَهم بعد ذاك الانفلات الذى كان يحتاج إلى مزيد من «الضبط والربط» .

وفى خطبته الآتية تفصيل بعد إجمال .. ومزيد بيان ..

---

(١) فعل أمر من الوفاء فتقول من وفى فِ ونلحق بها هاء السكت عند الوقوف عليها فتقول : فِهْ . ومثلها : وق . قِ . قِهْ .

▣ خطبة معاوية بالمدينة(*) ▣

فى سنة ٤١ هـ خطب معاوية بالمدينة خطبة حمد الله فيها ، وأثنى عليه ثم قال :

«أما بعد ، فإنى ـ والله ـ ما وُلّيتُها بمحبة علمتُها منكم ، ولا مَسَرّةٍ بولايتى ، ولكنى جالدتكم بسيفى هذا مجالدة(١) .

ولقد رُضْتُ لكم نفسى على عمل ابن أبى قحافة(٢) ، وأردتها على عمل عمر ، فنفَرت من ذلك نِفاراً شديداً ، وأردتُها على سُنَيَّات(٣) عثمان فأبت عَلَىّ !.

فسلكت بها طريقاً لى ولكم فيه منفعة : مؤاكلة حسنة ، ومُشَارَبَةٌ جَميلة ، فإن لم تَجِدُونى خيرَكم ، فإنى خير لكم ولاية .

والله لا أحمل السيف على من لا سيف له !

وإن لم يكن إلا ما يَسْتَشْفى به القائل بلسانه ، فقد جعلت له دَبْرَ أُذنى(٤) ، وتحت قدمى .

وإن تجدونى أقوم بحقكم كله ، فاقبلوا منى بعضه ، فإن أتاكم منى خير فاقبلوه ؛ فإن السيل إذا جاد(٥) يثرى ، وإذا قلّ أغنى . وإياكم والفتنة ؛ فإنها تُفسد المعيشة ، وتكدّر النعمة » .

إنه يكاشف أهل المدينة بأنه يعلم أنهم يُبغضونه ! وبأنه تولى الخلافة على كُرْهٍ منهم !

ثم يعلنهم أنه راود نفسه فى أن يحكمهم على طريقة أبى بكر وعمر وعثمان فأبت نفسه ذلك ؛ ولهذا سيَسْلك فى الحكم طريقاً جديداً لم يوضحه إلا بأن فيه منفعة لهم وله .

(*) العقد الفريد [٢/١٤٠] .

(١) جالدتكم : حاربتكم .

(٢) رُضت : مرنت . وابن أبى قحافة : أبو بكر .

(٣) سنوات حكمه القصار .

(٤) دَبْر أذنى : وراءها ، أى لم أُصْغ إليه .

(٥) جاد : كثر .

ثم يلين ويستميل بقوله : إنه إن لم يكن خيرهم علماً وفضلاً وديناً ، فإنه خير من يصلح للخلافة ، ويعدهم أنه لن يحاربَ من يساله ، ولن يَحْفِل بالأقاويل والشتائم التى ربما يلوكها بعضهم ، شفاء لما فى نفسه من مَوْجِدة . وكأنما يشعر أنهم سيتطلعون إلى منافع كثيرة ، يبتغون منه أن يحققها لهم ، فيقول لهم :

«إن لم أقم بحقوقكم كلها ، فاقبلوا منى بعضها ، فإن فى هذا البعض غنى» .

ثم يحذرهم الفتنة وعواقبها .

ويتجلى دهاء معاوية فى هذه الخطبة ففيها من اللين أكثر مما بها من الشدة والتهديد .

▣ سياسة ضرب الأحزاب بعضهم ببعض !! ▣

جاء فى إحدى الوصايا : « يا مولاى ، إذا لم تجعل لشعبك عدوّاً اتخذك عدواً له» . تُرى هل كان معاوية يريد أن يشغل الأعداء بعضهم ببعض ؟ ! . سوف نرى :

فبعد أن صالح الحسن بن على معاوية سار إلى المدينة .

فكتب إليه معاوية يدعوه إلى قتال الخوارج ...!

فكتب الحسن له[1] :

لو آثرتُ أن أقاتلَ أحداً من أهل القِبلة لبدأت بقتالك !؛ فإنى تركتك لصلاح الأمة وحقنِ دمائها !» .

وفى رد الحسن ما يفوّتُ على معاوية غرضه ، لكنها جولة تعقبها جولات ، والداهية لا يتخلى عن دهائه ، ولا يفارقه دهاؤه حتى الموت !

---

(١) الكامل لابن الأثير [١٦٣/٣] .

▣ كلام له مغزاه !! ▣

قال المدائنى(*) : قال معاوية يصف قريشاً :

* إذا لم يكن «الهاشمى» جواداً لم يشبه قومه .
* وإذا لم يكن «المخزومىّ» تَيَّاهاً لم يشبه قومه .
* وإذا لم يكن «الأموى» حليماً لم يشبه قومه .

فبلغ قوله الحسن بن على ـ رضى الله عنهما ـ فقال : ما أحسن ما نظر لنفسه !

أراد أن تجود « بنو هاشم » بأموالها فتفتقر إلى ما فى يديه .

وتزهو « بنو مخزوم » على الناس ، فتُبغض وتُشْنأ[1] .

وتحلم «بنو أمية» فتُحَبّ .

▣ درس فى الدهاء !! ▣

يسوق الجاحظ فى بيانه ثلاث رسائل دارت بين الحسن وزياد ، وبين معاوية وزياد ، وهى تكشف لنا الكثير من أخلاق ثلاثتهم .

[١] من الحسن بن على إلى زياد

قال : طلب «زياد» رجلاً كان فى الأمان الذى سأله الحسنُ بنُ علىٍّ لأصحابه ، فكتب فيه الحسن ـ رضى الله عنه ـ إلى زياد :

«من الحسن بن على إلى زياد .

أما بعد .. فقد علمتَ ما كنا أخذنا لأصحابنا ، وقد ذكر لى «فلان» أنك

(*) البيان والتبين للجاحظ .

(١) الشنآن : الكراهية .

عرضتَ له ، فأحبُّ ألا تعرضَ له إلا بخير» .

[٢] من زياد إلى الحسن

فلما أتاه الكتاب ، ولم ينسبه الحسن إلى أبى سفيان ، غضب ، فكتب :

«من زيادٍ بن أبى سفيان إلى الحسن :

أما بعد .. أتانى كتابك فى «فاسق» يُؤويه الفُسّاق من شيعتك ، وشيعة أبيك ، وأيم الله لأطلبنّهم ولو بين جلدك ولحمك ، وإن أحبّ لحمٍ إلىّ آكلُه لَحمٌ أنت منه ..!!

[٣] من معاوية إلى زياد

فلما وصل الكتابُ «الحسنَ» وجّه به إلى معاويةَ فلما قرأه معاوية غضب وكتب :

«من معاوية بن أبى سفيان إلى زياد بن أبى سفيان :

أما بعد .. فإن لك رأيين :

رأياً من أبى سفيان ، ورأياً من سُمَيّة !

فأما رأيك من أبى سفيان فحلم وعزم .

وأما رأيك من «سُمَيّة» فكما يكون رأى مِثْلِها !

وقد كتب إلىّ الحسنُ بن علىّ أنك عرَضتَ لصاحبه !

فلا تعرض له ، فإنى لم أجعل لك إليه سبيلاً !

وإن الحسن بن على ممن لا يُرْمَى به الرَّجَوان[1] .

والعجب من كتابك إليه أنك لا تنسبه إلى أبيه ، أَفَإلى أمه وكلته وهو ابن فاطمة بنت محمد ـ ﷺ ـ!؟ فالآن حين اخترت له .. والسلام !؟»

---

(١) الرّجا : الناحية ولكل بئر رجوان ، ويقال : رمى به الرجوان : طرح فى المهالك ، وهو ممن لا يرمى به الرجوان : أى لا يستهان بشأنه .

▣ من أكرم الناس ؟! ▣

قيل : تذاكر جلساء معاوية بحضرته يوماً أشراف الناس ، وذوى الوجاهة والبيوت الجليلة ـ والحسين حاضر ـ فقال معاوية :

من تعرفون أكرم الناس أباً وأماً ..

وجَدّاً وجَدّةً ..

وعمّاً وعمّةً ..

وخالاً وخالةً .؟

فقالوا : أمير المؤمنين أعلم !

فأخذ بيد الحسين بن على ـ رضى الله عنهما ـ وقال :

هذا أبوه على بن أبى طالب ، وأمه فاطمة ابنة محمد ـ ﷺ ـ، وجده رسول الله ـ ﷺ ـ، وجدته خديجة رضوان الله عليها ، وعمه جعفر بن أبى طالب ، وعمته هالة ابنة أبى طالب ، وخاله القاسم بن رسول الله ـ ﷺ ـ، وخالته زينب ابنة محمد ـ ﷺ ـ.

◄ معاوية وقد خلا الجوله بموت الحسن !

يروى ابن قتيبة ما كان من معاوية حين بلغه موت الحسن فيقول :

لما بلغ معاوية خبر موت الحسن أظهر فرحاً وسروراً ، فلما عرف عبد الله بن العباس ذلك دخل على معاوية ، فقال له معاوية :

يابن عباس ، هلك الحسن !

فأجاب ابن عباس : نعم هلك ! إنا لله وإنا إليه راجعون ، وقد بلغنى الذى أظهرت من الفرح والسرور لوفاته !

أما والله ما سد جسده حفرتَك ، ولا زاد نقصانُ أجله فى عمرك !

ولئن أُصبِنا به لقد أصبنا بمن كان خيراً منه جده رسول الله ـ ﷺ ـ، فجبر الله مصيبته ، وخلف علينا من بعد أحسن الخلف !

وبكى ابن عباس فبكى الحاضرون جميعاً !

قال معاوية : كم ترك بنين صغارا ؟!

قال ابن عباس : كلنا كان صغيراً فكبر .

قال معاوية : كم له من العمر ؟

فأجاب ابن عباس : الحسن أعظم من أن يجهل أحد مولده !

قال معاوية : أصبحت ـ يابن عباس ـ سيد قومك !

قال ابن عباس : أمّا ما أبقى الله أبا عبد الله الحسين فلا !!

قال معاوية : لله أبوك يابن عباس ! ما استنبأتك إلا وجدتك مستعداً»[1] .

▣ شيء من أدب معاوية وسياسته ▣

بين معاوية وأم المؤمنين عائشة

كتب معاوية إلى السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن اكتبى إلىّ كتاباً توصينى فيه ، ولا تكثرى ، فكتبت إليه : سلام عليك ، أما بعد ؛ فإنى سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « **من التمسَ رضا الله بسخَط الناس ، كفاه الله تعالى مُؤنةَ الناس . ومن التمس رضا الناس بسَخَط الله وكله الله تعالى إلى الناس** » . والسلام عليك .

[أخرجه الترمذى ـ كما جاء فى تيسير الوصول]

* وفى مسند أحمد ، وأصله فى مسلم ، عن ابن عباس ؛ قال : قال النبى ـ ﷺ ـ: « **ادع لى معاوية** » . وكان كاتبه .

* وذكر ابن أبى الدنيا أن عمر قال : « **إياكم والفرقة بعدى ؛ فإن فعلتم ، فاعلموا أن معاوية بالشام ، فإذا وكلتم إلى رأيكم كيف يستبزها منكم ؟!** »

* معاوية فى مرضه :

أنشد معاوية وقد تجلد لعائديه :

---

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة [جـ ١ ص ١٦٦ ـ ١٦٧] .

وتجلـــدى للشامـــــتين أُريهمُ أنى لريب الدهـــر لا أتضعضع
وإذا المنية أنشَبَتْ أظفارها ألفَيْتَ كلَّ تميمةٍ لاتنفـع

معاوية ومحمد بن الأشعث :

ويفرد الجاحظ فصلاً فى البيان والتبيين تحت عنوان :

« شيء من أدب معاوية وسياسته »

فيقول : وأذن معاوية للأحنف بن قيس ، وقد وافى معاويةَ محمدُ بن الأشعث ، فوَجَد[1] من ذلك محمد بن الأشعث ، وأُذن له ، فجلس بين معاوية والأحنف ، فقال معاوية :

« إنا والله ما أذنا له قبلك إلا ليجلس إلينا دونك !

وما رأيت أحداً يرفع نفسَه فوق قدرها إلا من ذِلَّة يجدها ، وقد فعلَت فعلَ من أحسّ من نفسه ذُلاً وضعةً ، وإنّا كما نملك أموركم نملك تأديبَكم ؛ فأريدوا منا ما نُريده منكم ، فإنه أبقى لكم ، وإلا قَصَرْناكم كرهاً ، فكان أشد عليكم وأعنف بكم .

◄ معاوية ورجل من أهل سبأ :

وقال معاوية لرجل من أهل سبأ : ما كان أجهلَ قومك حين ملكوا عليهم امرأة !

فقال : بل قومك أجهل ! قالوا حين دعاهم الرسول ـ ﷺ ـ إلى الحق ، وأراهم البينات :

﴿ اللّٰهم إن كان هذا هو الحقَّ من عِندك فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ . [الأنفال : ٣٢] .

ألا قالوا : اللّٰهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له !!

معاوية عندما سقطت ثنيتاه[2] !

ولما سقطت ثنيتا معاوية لفّ وجهه بعمامة ، ثم خرج إلى الناس فقال :

---

(١) وجَد يَجِد : حزن . ووجد عليه غضب .

(٢) الثنيّة : إحدى الأسنان الأربع التى فى مقدم الفم ثنتان من فوق وثنتان من تحت . وهما ثَنِيّتان .

لئن ابتُلِيتُ ، لقد ابتُلِى الصالحون قبلى ، وإنى لأرجو أن أكون منهم ! ولئن عوقبت لقد عوقب الخاطئون قبلى وما آمنُ أن أكون منهم ! ولئن سقط عضوان منى لما بقى أكثر !

ولو أتى على نفسى لما كان لى عليه خيارٌ ـ تبارك وتعالى ـ، فرحم الله عبداً دعا بالعافية ، فوالله لئن كان عتب علىّ بعض خاصتكم لقد كنت حَدِبًا[1] على عامّتكم .

▣ بين معاوية والرهاوى ▣

جاء فى أخلاق الملوك من كتاب «التاج» المنسوب إلى الجاحظ ما يأتى :

.. وهكذا يُحْكَى عن أبى شجرة ، يزيد بن شجرة الرهاوى ، أنه بيْنَا هو يساير معاوية بن أبى سفيان ، ومعاوية يحدثه عن يوم خُزَاعة ، وبنى مخزوم وقريش ، وكان هذا قبل الهجرة ، وكان يوماً أشرف فيه الفريقان على الهلكة حتى جاءهم أبو سفيان فارتفع ببعيره على رابية ، ثم أومأ بكُمّيه[2] إلى الفريقين ، فانصرفوا .

قال : فبينا معاوية يحدث يزيد بن شجرة بهذا الحديث ، إذْ صك وجه يزيد حجرٌ عائر[3] ، فأدماه ، وجعلت الدماء تسيل من وجهه على ثوبه ، وهو ما يمسح وجهه .

فقال معاوية : «لله أنت ! ما ترى ما نزل بك» ؟!

قال : وماذاك ياأمير المؤمنين ؟

قال : هذا دم وجهك يسيل على ثوبك !

قال : أعتِقُ ما أملك ، إن لم يكن حديث أمير المؤمنين ألهانى حتى غمر فكرى ، وغطّى على قلبى ، فما شعرت بشىء حتى نبهنى أمير المؤمنين !

---

(١) الحَدِب : العطوف .

(٢) وفى رواية ثانية : «بكمه» ، وفى رواية ثالثة «بكفه» .

(٣) ورويت : «غاير» و «عاير» ، والعائر : هو ما لا يعرف راميه .

فقال له معاوية : لقد ظلمك من جعلك فى ألْفٍ من العطاء ، وأخرجك من عطاء أبناء المهاجرين ، وكُماةِ[1] أهل صِفِّين ، فأمر له بخمسمائة ألف درهم ، وزاده فى عطائه ألف درهم ، وجعله بين جلده وثوبه !

ويعلق الجاحظ قائلاً :

فلئن كان «يزيد بن شجرة» خدع معاوية فى هذه ، فمعاوية ممن لا يخادَع ولا يُجَارَى .

ولئن كان بلغ من بلادة «يزيد بن شجرة» وقلة حِسّه ما وصف به نفسه ، ما كان بجدير بخمسمائة ألف فى عطائه .

وما أظن ذلك خفى عن معاوية ، ولكنه تغافل على معرفة ، لمَّا وفاه حق رياسته !

ويروى عن معاوية أنه كان يقول : «السَّرْوُ[2] التغافل» .

▣ التغاضى عن الصغائر ! ▣

يقول الجاحظ فى كتاب التاج فى أخلاق الملوك :

ومن أخلاق الملك التغافل عما لا يقدح فى الملك ، ولا يجرح المال ، ولا يضع من العز ، ويزيد فى الأبهة .

وهكذا فعل معاوية بن أبى سفيان فى يوم عيد ، وقد قعد للناس ، ووضعت الموائد ، وبِدَر الدراهم والدنانير للجوائز والصِّلات .

فجاء رجل من الجماعة ، والناس يأكلون ، فقعد على كيس فيه دنانير ، فصاح به الخدم : « تَنَحّ فليس هذا بموضع لك ! فسمع معاوية ، فقال :

دعوا الرجل يقعد حيث انتهى به المجلس ، فأخذ كيساً ، فوضعه بين بطنه ، وحُجزة سراويله ، وقام !

---

(١) الكماة : جمع كمىّ وهو البطل المدجج بالسلاح .

(٢) السَّرْو : السخاء والمروءة والشرف ومنه قولهم : رجل سَرِىّ النفس .

فلم يجسر أحد أن يدنو منه .

فقال الخادم : أصلح الله أمير المؤمنين ! ، إنه قد نقص من المال كيسُ دنانير !

فقال : أنا صاحبه ، وهو محسوب لك .

وهذه أخلاق الملوك معروفة فى سيرهم وكتبهم ، وإنما يتفقد مثل هذا من هو دون الملك ، فأما الملك فيجل عن كل شيء ، ويصغر عنده كل شيء !

▣ مسايرة شرحبيل لمعاوية ▣

« على من يساير الملوك أن يتنكب ما يقذى أعينهم بكل جهده ، فإن لمسايرتهم شروطاً يجب على من طلبها أن يستعملها ويتحفظ فيها » [الجاحظ]

يحكى عن معاوية بن أبى سفيان ، بينا هو يسير ، وشرحبيل بن السمط يسايره ، إذْ راثت دابّة شرحبيل ؛ فقال معاوية : «ياأبا يزيد !، إنه يقال : إن الهامَة[1] إذا عظمت دلت على وُفور الدماغ ، وصحة العقل .

قال : نعم ياأمير المؤمنين ، إلا هامتى ، فإنها عظيمة ، وعقلى ضعيف ناقص !

فتبسم معاوية وقال : كيف ذلك ؟، ولله أنت !» .

قال : لإطعامى هذا النائل أمه البارحة مكّوكَىْ[2] شعير !!

فضحك معاوية ، وقال : « أفحشتَ وما كنت فاحشاً ! وحمله على دابة بين مراكبه » .

(١) الهامة : الرأس .

(٢) المكوك : مكيال .

▣ بعض نظراته الصائبة وأقواله الحكيمة ▣

المعروف والمنكر :

قال معاوية : معروف زماننا هذا منكر زمان قد مضى . ومُنكَر زماننا هذا معروف زمان لم يأت .

◄ تدارك :

قال يوماً على المنبر : يأهل الشام ؛ ما أنتم بخير من أهل العراق .

ثم ندم فتداركها ؛ فقال : إلا أنكم أعطيتُم بالطاعة ، وحُرموا بالمعصية .

من كلامه وحكمته :

الفرصة خُلْسة ، والحياء يمنع الرزق ، والهيبة خيبة ، والحكمة ضالة المؤمن .

إفساد الحر :

قال يوماً لابنه يزيد ، يابنى ؛ لا تستفسد الحرّ فساداً لا تُصْلِحهُ أبد . قال : بماذا ؟

قال : لا تَشْتُمَن له عِرضاً ، ولا تضربنّ له ظهراً ، فإن الحرّ لا يرى الدنيا عوضاً من هذين !

ولكن خذ ماله ، ومتى شئت أن تُصْلِحَه فمال بمال .

الصدق فى بعض المواطن :

وأتى بسارق ؛ فقال : أسَرَقْت ؟

فقال بعض من حضر : اصدق أمير المؤمنين .

فقال معاوية : الصدق فى بعض المواطن عجز .

من وصاياه لأحد عماله :

قال لعامِلٍ له : كل قليلاً تعمل طويلاً .

الزم العفاف يلزمك العمل .

إياك والرُّشَا يشتدّ ظهرك عند الخصام .

إياك والسلطان :

وقال لأبى الجهم : إياك والسلطان ، فإنه يَغْضَبُ غضبَ الصبى ، ويُعاقب عقوبة الأسد ؛ فإن قليله يغلب كثير الناس .

◄ معاوية وعُبيد الله بن زياد :

لما مات «زياد» وفد عليه «عبيد الله» ابنه : فقال له : من استخلف أخى على عمله بالكوفة ؟

قال : عبد الله بن خالد بن أُسَيْد[1] .

قال : فعلى البصرة ؟

قال : سمُرة بن جُندب .

فقال له معاوية : لو استعملك أبوك استعملتك !

فقال عبيد الله : أنشدك الله أن يقولها لى أحد بعدك : لو ولّاك أبوك وعمك وليتك . فولاه خراسان[2] .

وأوصاه فقال : اتق الله ولا تؤثرن على تقواه شيئاً .

وَقِ عِرضَك من أن تدنسه . وإذا أعطيت عهداً فَفِ به .

ولا تبيعنّ كثيراً بقليل .

وخذ لنفسك من نفسك .

ولا يخرجنّ منك أمر حتى تُبرمه ، فإذا خرج فلا يُرَدّنّ عليك . وإذا لقيت عدوَّك فغلبك على ظهر الأرض ، فلا يغلبنك على بطنها .

وإن احتاج أصحابُك أن تواسيَهم بنفسك فواسهم ، ولا تُطمِعَنّ أحداً فى غير حقه .

---

(١) عبد الله بن خالد بن أسيد اختلف فى كونه مخزومياً أو أموياً ، ولى فارس من قِبَل معاوية ، واستخلفه زياد على البصرة [الإصابة : ٤ ـ ٦١] .

(٢) فى عيون الأخبار [١ : ٢٣٠] قال له عبيد الله : لا يقولنها أحد بعدك ، ما منع أباه وعمه أن يكونا استعملاه .

ولا تُؤْيِسَنّ أحداً من حقٍّ هُوَله .

إذا جادلت وناظرت وانتصرت فقد خسرت :

قال له ابن عباس : هل لك فى مناظرتى فيما زعمت أنك خصمت فيه أصحابى ؟

فقال له معاوية : ما تصنع بمناظرتى ؟ فأشغب بك، وتشغب[1] بى ، فيبقى فى قلبك ما لا ينفعك ، ويبقى فى قلبى ما يضرك .

▣ اتفاق أبويه على ما أوصياه به ! ▣

قدم معاوية من ولاية كان عمر ولاه إياها فبدأ بعمر ـ رضى الله عنه ـ فلما دخل عليه قال له :

متى قدمت ؟ قال : الآن . وبدأت بك .

قال : اذهب فابدأ بأبويك ؛ فإن حقنا لم يدخل على حقهما .

وابدأ بأمك .

قال : فخرجت من عنده ، ودخلت على أمى هند ، فقالت : يابنى ؛ إنه ما ولدت حرةٌ مثلَك ، وإنك قد أُنهِضْت فانهض ، وإن الذى استعملك قادر على أن يعزِلَك .

فاعمل بما وافقه ، وافقك ذلك أو خالفك .

قال : فخرجت من عندها فدخلت على أبى فقال : يابنى ، إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا فأساءوا سبقنا ، فرفعوا وضيعهم ، ووضعوا رفيعنا ، وصرنا أذناباً ، وصاروا رءوساً ، وقد رأيتهم ولّوك جسيماً من غير حاجة بهم إليك ، ولكنه جدٌّ[2] وقع ؛ فاعمل بما وافقهم ، إمّا لربك ، وإمّا لهم .

---

(١) الشغب : تهييج الشر وإثارة الفتن والاضطراب .

(٢) جَدّ : خط .

وجاء فى العِقْد الفريد قول معاوية بعد أن سمع كلاميهما : فعجبت من اتفاقهما فى المعنى على اختلافهما فى اللفظ !

عطاء لا يُنْسَى !

قال معاوية لابن الأشعث بن قيس :

ما كان جَدّك قيس بن معد يكرب أعطى الأعشى ؟

فقال : أعطاه مالاً وظَهْراً ورقيقاً وأشياءَ أُنسيتُها .

فقال معاوية : لكن ما أعطاكم الأعشى لا يُنْسَى .

معاوية والخلافة :

ذُكِرَ علىّ ـ رضى الله عنه ـ فى مجلس معاوية ، وعنده أهله ، فقال عنبسة بن أبى سفيان : والله إنى لأعجب من علىٍّ وطلبه للخلافة !

فقال معاوية ـ وضحك ـ: أما والله إنها سُنّة كما قال الشاعر :

وما تركته رغبةً عن جماله ولكنها كانت لآخر تُخْطَب

معاوية وزياد :

وفخر عنده سُليم مولى زياد ، فقال معاوية : اسكت فوالله ما أدرك صاحبك شيئاً بسيفه إلا وقد أدركت أكثر منه بلسانى .

ثلاث من السُّؤْدُد :

ومن كلام معاوية : ثلاث من السُّؤدد : الصّلَع ، واندحاء البطن (عظمها واسترسالها) ، وترك الإفراط فى الغيرة .

ويقول الآبى فى نثر الدر : وقد عيب بهذا الكلام ، ورمى بقلة الغيرة .

معاوية وعمرو بن العاص :

وقال معاوية لعمرو بن العاص : ياعمرو ؛ إن أهل العراق قد أكرهوا عليًّا علَى أبى موسى ، وأنا ـ والله ـ وأهل الشام راضون بك .

وقد ضم إليك رجل طويل اللسان ، قصير الرأى ؛ فأَجِدِ الحَزّ ، وطَبّق

المفصل ، ولا تلقه برأيك[1] كله .

رجوعه إلى الحق :

قال ليونس بن سعيد الثقفى : اتق الله لا أطيرُ بك طيرةً بطيئاً وقوعها قال : أليس لى وبك المرجع بعدُ إلى الله ؟

قال : بلى ، فأَسْتَغْفِرُ الله .

أى الشعر أحب إليه ؟

قال لعبد الرحمن بن الحكم الشاعر الأموى : بلغنى أنك قد لهجت بقول الشعر . قال : قد فعلت .

قال : فإياك والتشبيب بالنساء ، فتغر الشريفة ، وترمى العفيفة ، وتقر على نفسك بالفضيحة .

وإياك والهجاء ؛ فإنك تُحنِقُ عليك كريماً ، وتستثير سفيهاً ، وإياك والمديح ؛ فإنه طعمة الوَقَاح ، وتفحش السؤال .

ولكن افخر بمفاخر قومك ، وقل من الشعر ما تزين به نفسك ، وتؤدب غيرك .

المُلْك بين الحزم والتوانى !

وقال لعمرو بن سعيد : ليس بين الملك ، وبين أن يملك جميع رعيته ، أو يملكه جميعهم إلا حزم ، أو توانٍ .

◄ معاوية وزياد أيهما أدهى ؟!

قيل لمعاوية : أنت أنكر (أدهى) أم زياد ؟

قال : إن زياداً لا يدَعُ الأمر يتفرق عليه ، وإنه يتفرق علىّ فأجمعه .

---

(١) فى العقد الفريد أن هذا القول مثل للبليغ الموجز الذى يقل الكلام ، ويصيب المعانى .

◄ معاوية وعمرو بن العاص :

وقال عمرو بن العاص لمعاوية : ما أشد حبَّك للمال ! قال : ولم لا أحبه .

من السِّفلَة[٢] فى رأيه :

وقال : السِّفلَةُ من ليس له نسب معروف أو فعل موصوف .

صفات لا تجتمع فى حر :

وقال : ثلاثة ما اجتَمعت فى حر : مباهتَةُ الرجال[١] ، والغيبة للناس ، والملال لأهل المروءة .

خذ فيما كنت فيه !

قدم على معاوية رجل ، فإنه ليحدثه إذ حَبق (ضرط) ؛ فانقبض وترك الكلام من هيبة الموقف .

فقال معاوية : خذ فيما كنت فيه ، فما سمعتها من أحد أكثر مما سمعتُها من نفس !

العيال والمال :

وقال : العيال أَرَضَةُ المال !

معاوية والثقة بالناس :

وقيل له : ما بلغ من عقلك ؟ قال : لم أثق بأحد .

وكّل به من يؤدبه :

نظر معاوية إلى ابنه يزيد وهو يضرب غلاماً له ، فقال له : لا تُفْسِدْ أدبك بتأديبه ، ولكن وكِّل به من يؤدبه .

---

(٢) السِّفْلَةُ من الناس : هم أسافلهم وغوغاؤهم ، والسِّفِلَةُ أيضاً .

(١) رميهم بما ليس فيهم زوراً وبهتاناً .

النبل عنده :

وسئل : ما النبل ؟ فقال : الحلم عند الغضب ، والعفو عند المقدرة .

حكمته فى رده :

قال له رجل : والله لقد بايعتك وأنا كاره . فقال : قد جعل الله فى الكره خيراً كثيراً[1] .

معاوية والنساء :

قال معاوية فى النساء : إنهن يغلبن الكرام ، ويغلبهن اللئام .

لكل شىء آفة !

قال معاوية :

آفة المروءة : الكبر وإخوان السوء .
وآفة العلم :النسيان .
وآفة الحِلْم : الذل .
وآفة الجود : السَّرَف .
وآفة القصد : البخل .
وآفة المنطق : الفُحْش .
وآفة الجلد : الكسل .
وآفة الرّزانة : الكبر .
وآفة الصمت : العِىّ .
وآفة اللّب : العُجب .
وآفة الظَّرف : الصلف .
وآفة الحياء : الضعف .

وبعد هذه النظرات الصائبة ، والأقوال الحكيمة ، والتجارب النافعة ، يطيب لنا أن نتابع الجانب العملى .. فتعال نتعرف على البحرية الإسلامية فى عهده ، وما كان لها من شأن ووجود فى البحر الأبيض المتوسط !!

---

(١) فى العقد الفريد مايخالف رواية الآبى فى نثر الدر : أبايع يزيد وأنا كاره .

▣ الفتوح فى عهد معاوية ▣

السـند :

غزا عبد الله بن سوّار الذى كان أميراً على ثغر السند « القيقان »[1] مرتين قتل فى ثانيتهما .

وغزا المهلب بن أبى صفرة هذه الجهات ووصل إلى لاهور[2] .

وكانت همة المسلمين موجهة نحو الشمال والغرْب ؛ حيث الدولة الرومانية الشرقية التى كانت تغير على البلاد الإسلامية لما بينها من الجوار !

فرتب معاوية الغزو إليها براً وبحراً .

وقد بلغ أسطول الشام فى عهد معاوية ١٧٠٠ سفينة افتتح بها عدة جهات منها جزيرة «قبرص» ، وجزيرة «رودس» وبعض الجزائر اليونانية ، أما فى البر فقد رتب «الشواتى والصوائف»[3] .

▣ أول عملية إبرار بحرى فى تاريخ المسلمين ▣ (عام ٢٨ هـ . ٣٣ هـ)

كم كان معاوية بن أبى سفيان بعيد النظر شديد الوعى البحرى مؤمناً بأن السيطرة على الجزر ذات الموقع الحاكم فى البحر الأبيض المتوسط ، وخاصة الجانب الشرق منه «ضرورة استراتيجيّة» لتحقيق السيادة البحرية للأساطيل الإسلامية .

ولقد كانت «قبرص» من وجهة نظر المسلمين فى الشام تشكل خطراً على الشام ـ خلال عمليات الفتح ـ باعتبارها قاعدة للبيزنطيين (الروم) فى إغاراتهم

---

(١) من بلاد السند مما يلى خراسان .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان [ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩] .

(٣) المراد بها الجيوش التى كانت تغزو هذه البلاد فى الشتاء والصيف .

البحرية على الشام ، وملجأ يلجئون إليه عند ارتدادهم عنه استعداداً لمعاودة الإغارات[1] .

فخلال سنوات الفتح الإسلامى للشام لم يجد المسلمون عدواً لهم فى معاركهم أقسى من البحر ، وما يأتى منه من أخطار[2] .

ويعتبر معاوية بن أبى سفيان أول من نظّم أسطولاً فى الإسلام ، وأول من أرسل حملة بحرية إسلامية للغزو فى البحر الأبيض المتوسط ، فقد استأذن الخليفة عمر ـ وهو يلى الشام من قِبَله ـ لكى يسمح له الخليفة بركوب البحر لاعتزامه فتح جزيرة قبرص ، ومما قاله معاوية لعمر :

«ياأمير المؤمنين ، إن بالشام قرية يسمع أهلها نُباحَ كلاب الروم ، وصياح ديوكهم أو «دجاجهم» ، وهى تِلْقاءَ ساحل من سواحل حِمص ، فاتهمه عمر ؛ لأنه المشير بذلك ، وكتب إلى «عمرو بن العاص» والى مصر ـ رضى الله عنه ـ:

«أنْ صِف لى البحر ثم اكتب إلىّ بخبره» .

فكتب إليه «عمرو بن العاص» : «ياأمير المؤمنين ، إنى رأيت خَلْقاً كبيراً ، يركبه خَلْق صغير ، ليس إلا السماء !

إن رَكُن (سكن) خرَّق القلوب ، وإن تحرك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة .

هم فيه كدُودٍ على عود ، إن مال غرق ، وإن نجا بَرِق» (من الحيرة والدهشة) .

لما قرأ عمر الخطاب ما بعث به عمرو بن العاص إليه كتب إلى معاوية :

---

(١) مجلة الأزهر مايو ١٩٩٠م لواء . ا . ح محمد جمال الدين محفوظ . بتصرف .

(٢) ولقد تجلى لنا هذا الخطر فى العصر الحاضر أيام أحداث العدوان الثلاثى (الإنجليزى ـ الفرنسى ـ الإسرائيلى) عام ١٩٥٦ م حيث كانت قبرص القاعدة التى انطلقت منها أساطيل العدو وطائراته .

«لا والذى بعث محمداً بالحق ، لا أحمل فيه (أى : فى البحر) مُسْلِماً أبداً»[1] .

ولكن معاوية ما يزال مقتنعاً بضرورة فتح قبرص ، فليس أمامه إلا الانتظار !

وفى خلافة عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه (٢٣ ـ ٣٥ هـ) أعاد معاوية عام ٢٧ هـ طلبه موضحاً أهمية البحر ، فأذن له عثمان ، وأوصاه : «لا تنتخب الناس ، ولا تُقْرع بينهم ، خيّرهم ، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه» .

وهنا تحققت أمنيته ، وراح يستعد لغزو قبرص .. وتحرك أسطول مشترك بين الشام ومصر تحت القيادة العامة لمعاوية ، وكانت قيادة أسطول الشام لعبد الله بن قيس ، أما أسطول مصر فكانت قيادته لعبد الله بن سعد بن أبى سرح .

واحتشدت الأساطيل فى ميناء «عكا» ، وقد اشترك مع الجند عدد من كبار الصحابة من بينهم : أبو الدرداء ، وأبو ذَرٍّ الغفارى ، وفضالة بن عبيد ، والمقداد ابن الأسود ، وعبادة بن الصامت ، الذى حمل معه زوجته «أم حرام بنت ملحان الأنصارية» وقد اصطحب معاوية معه زوجته فاختة تنفيذاً لأمر الخليفة عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ حين أذن له بالغزو فى البحر بأن يأخذ امرأته : «إن ركبت البحر ومعك امرأتك ، فاركبه مأذونا لك ، وإلا فلا»[2] .

وأبحرت الحملة البحرية الإسلامية من ميناء «عكا» فى ربيع عام ٢٨ من الهجرة إلى «قبرص» حيث قام المسلمون بأول عملية إبرار بحرى فى تاريخهم ، وبعد أن أنزلوا عدتهم وعتادهم إلى شاطىء الجزيرة أرسلوا إلى أهلها يخبرونهم بأهدافهم ، وأنهم إنما جاءوا ليتفقوا معهم على ما فيه تأمين للشواطىء الإسلامية على المياه الشرقيّة من البحر المتوسط .

ولكن سكان الجزيرة تحت ضغط الروم أَبَوْا الدخول فى مفاوضات مع المسلمين واعتصموا بأسوار مدنهم ، فتقدمت الجيوش نحو عاصمتهم «قسطنطينا» وحاصرتهم ، واستولوا على كنوزهم وأسروا كثيراً منهم مما اضطر حاكم العاصمة

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك [جـ ٤ ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩] .
(٢) البلاذرى فتوح البلدان .

أو (أركونها) إلى عقد صلح مع المسلمين يحقق الأمل المرجو من غزو الجزيرة وعاد الأسطول الإسلامى إلى قواعده دون أن يترك فى جزيرة قبرص حامية من القوات الإسلاميّة .

محاولة غزو القسطنطينيّة :

وفى سنة ٤٨ هـ جهز معاوية جيشاً لفتح القسطنطينية براً وبحراً ، وكان على الجيش سفيان بن عوف[1] ، وقد خرج معه عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وأبو أيوب الأنصارى ، وأمّر معاوية ابنه يزيد على الجيش ؛ فساروا حتى بلغوا «القسطنطينية» ، فاقتتل المسلمون والروم ، ولم يستطع العرب فتح القسطنطينية لمتانة أسوارها ، ومنعة موقعها ، وفتك النار الإغريقية بسفن المسلمين .

وفى أثناء الحصار قتل «أبو أيوب الأنصارى» فدفن خارج «القسطنطينية» قريباً من سورها .

ثم اضطر المسلمون للعودة إلى الشام بعد أن فقدوا كثيراً من جنودهم وسفنهم .

غزو أفريقية :

وفى سنة ٥٠ هـ أرسل معاوية إلى «عقبة بن نافع» الذى كان مقيماً «ببرقة» و «زويلة» منذ أيام «عمرو بن العاص» عشرة آلاف جندى ، فدخل إفريقية ، وتمكن من فتحها ، وأسلم على يديه كثير من البربر .

وقد عمل العرب على إدخالهم ضمن جيوشهم ؛ وبذلك تسنى لهم أن يجذبوهم إلى اعتناق الإسلام حتى اتصل ببلاد السودان كما يقول ياقوت .

وقد كون البربر نواة الجيوش التى أتمت فتح بلاد المغرب تحت قيادة قواد من العرب ، بل ومن البربر أيضاً .

وبذلك أصبح «عقبة بن نافع» والياً على إفريقية بعد أن كانت ولايتها تابعة

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى . د. حسن إبراهيم [جـ ١ ص ٤٠٦] .

لولاة مصر .

تمصير القيروان :

وقد رأى عقبة ـ على أثر انتصاره على البربر ـ أن يتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا ثورة أهل البلاد ، فقصد مدينة القيروان[1] .

وأمر ببناء المدينة ، فبنيت كما بنى بها المسجد الجامع ، ولم يلبث «عقبة» أن عزل وولى مكانه «أبو المهاجر مولى مَسْلَمة بن مُخَلّد» الذى ولاه معاوية مصر وإفريقية[2] .

(١) مدينة مُصّرت فى الإسلام أيام معاوية .

(٢) انظر كتاب البلدان لليعقوبى ، معجم البلدان لياقوت [جـ٧ ص ١٩٣ ـ ١٩٤] ، كتاب الولاة للكندى [ص ٣٦]

▣ يوم من أيام معاوية !! ▣

ذكر المسعودى شيئاً عن حياة معاوية الخاصة وشغفه بالعلم فقال : «كان من أخلاق معاوية أنه كان يؤذن فى اليوم والليلة خمس مرات» .

كان إذا صلى الفجر جلس للقاصّ حتى يفرغ من قصصه ، ثم يدخل فيؤتى بمصحفه ، فيقرأ أجزاءه ، ثم يدخل إلى منزله ، فيأمر وينهى ، ثم يصلى أربع ركعات .

ثم يخرج إلى مجلسه ، فيأذن لخاصة الخاصة ، فيحدثهم ويحدثونه ، ويدخل عليه وزراؤه فيكلمونه فيما يريدون من يومهم إلى العشى ، ثم يؤتى بالغداء الأصغر ، وهو فضلة عشائه من جدى بارد ، أو فرخ ، أو ما يشبهه .

ثم يتحدث طويلاً ، ثم يدخل منزله لما أراد ، ثم يخرج فيقول : ياغلام ، أخرج الكرسى ، فيخرج إلى المسجد ، فيوضع ، فيسند ظهره إلى المقصورة ، ويجلس على الكرسى .

ويقوم الأحداث ، فيتقدم إليه الضعيف والأعرابى والصبى ، والمرأة ومن لا أحد له ، فيقول : ظُلِمت ، فيقول : أعزوه .

ويقول : عُدِىَ على ؛ فيقول : ابعثوا معه .

ويقول : صُنِع بى ؛ فيقول : انظروا فى أمره .

حتى إذا لم يبق أحد ، دخل فجلس على السرير ، ثم يقول : ائذنوا للناس على قدر منازلهم ، ولا يشغلنى أحد عن رد السلام . فيقال : كيف أصبح أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ؟ فيقول : بنعمة من الله .

فإذا استووا جلوساً قال : ياهؤلاء ، إنما سميتم أشرافاً لأنكم شرّفتم من دونكم بهذا المجلس .

ارفعوا إلينا حوائج من لا يصل إلينا ، فيقوم الرجل ، فيقول : استشهد فلان ، فيقول : افرضوا لولده .

ويقول آخر : غاب فلان عن أهله ، فيقول : تعاهدوهم .. أعطوهم .. اقضوا حوائجهم . اخدموهم .

ثم يؤتى بالغداء ، ويحضر الكاتب ، فيقوم عند رأسه ! ويقدم الرجل فيقول له : اجلس على المائدة ، فيجلس ، فيمد يده فيأكل لقمتين أو ثلاثاً ، والكاتب يقرأ كتابه ، فيأمر فيه أمراً ، فيقال : ياعبد الله ، أَعْقِبْ .

فيقوم ويتقدم آخر حتى يأتى على أصحاب الحوائج كلهم . وربما قدم عليه من أصحاب الحوائج أربعون أو نحوهم على قدر الغداء ، ثم يرفع الغداء ، ويقول للناس :

أجيزوا ، فينصرفون ؛ فيدخل منزله ، فلا يطمع فيه طامع حتى ينادَى بالظهر ، فيخرج فيصلى ، ثم يدخل فيصلى أربع ركعات ، ثم يجلس فيأذن لخاصة الخاصة .

فإذا كان الوقت وقت شتاء أتاهم بزاد الحاج من الأخبصة اليابسة ، والخشكنانج[1] ، والأقراص المعجونة باللبن والسكر من دقيق السميذ ، والكعك المنضد ، والفواكه اليابسة .

وإذا كان وقت صيف أتاهم بالفواكه الرطبة ، ويدخل إليه وزراؤه ، فيؤامرونه فيما احتاجوا إليه بقية يومهم ، ويجلس إلى العصر ثم يخرج ، فيصلى العصر ، ثم يدخل منزله ، فلا يطمع فيه طامع ، حتى إذا كان آخر أوقات العصر ، خرج فجلس على سريره ، ويؤذن للناس على منازلهم ، فيؤتى بالعشاء ، فيفرغ منه مقدار ما ينادى بالمغرب ، ولا ينادى له بأصحاب الحوائج .

ثم يرفع العشاء ، وينادى بالمغرب ، فيخرج فيصليها ، ثم يصلى بعدها أربع ركعات ، يقرأ فى كل ركعة خمسين آية ، يجهر تارة ويخافت أخرى .

ثم يدخل منزله ، فلا يطمع فيه طامع حتى ينادى بالعشاء الآخرة ، فيخرج فيصلى ، ثم يؤذن للخاصة ، وخاصة الخاصة ، والوزراء ، والحاشية ، فيؤامره

---

(١) الأخبصة : جمع خبيص . حلوى مخلوطة من التمر والسمن .
والخشكنان : خبزة من خالص دقيق الحنطة تملأ بالسكر واللوز أو الفستق . وتقل (القطائف) .

الوزراء فيما أرادوا صدراً من ليلتهم، ويستمر إلى ثلث الليل فى أخبار العرب ، وأيامها ، والعجم وملوكها ، وسياستها لرعيتها ، وسائر ملوك الأمم ، وحروبها ، ومكايدها ، وسياستها لرعيتها وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة .

ثم تأتيه الطرف الغريبة من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة .

ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد ، فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها ، والحروب والمكايد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون . وقد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار ، وأنواع السياسات ، ثم يخرج فيصلى الصبح ، ثم يعود فيفعل ما وصفنا فى كل يوم» .

◘ معاوية فى بيته ◘

مع زوجاته :

كان معاوية يقدم أم ولده يزيد على أم ولده عبد الله ، وقد جلس مع الثانية يوماً ، فمرت بها أم يزيد وهى ميسون بنت بجدل الكلبية ، فأتبعتها أم عبد الله عينها وقالت لها : لعن الله خمش ساقيك[1] !

تقصد بذلك ما كانت عليه «ميسون» أيام كانت تعيش فى البادية وتنتقل بين الوديان بين الشيح والقيصوم[2] ، فتتعرض للشوك ..

فغضب معاوية وقال : أرأيت ذلك منها ؟!

فقالت : نعم !

فقال معاوية : أما والله على هذا لما انفرجت عنه ساقاها خير مما انفرجت عنه ساقاك !

وهو يشير بذلك إلى نجابة يزيد ، وفصاحة لسانه ، وتوقد لبه ، وخمول أخيه عبد الله ، وتراخي همته عن طلب المعالى .

(١) الخمش : اسم لجرح البشرة ، وهو أثر الخمش .

(٢) الشيح : نبت رائحته طيبة ، وهو كثير الأنواع ترعاه الماشية . والقيصوم أيضاً قريب من نوع الشيح كثير فى البادية .

◘ معاوية ومَيْسون(*) ◘

تزوج معاوية ميسون بنت بجدل الكلبية وهى شاعرة من شواعر العرب ، ونقلها من البدو إلى دمشق ، وأسكنها قصراً من قصور الخلافة ، فكانت تكثر الحنين والتذكر لمسقط رأسها ، فأنصت إليها معاوية ذات يوم وهى تنشد :

لَلُبْسُ عباءة وتقرّ عينى ... أحبُّ إلىّ من لبس الشفوفِ
وبيت تخفق الأرواح فيه ... أحبُّ إلىّ من قصرٍ منيف
وبكر يتبع الأظعان صعب ... أحبّ إلى من بغلٍ زفوفِ
وكلبٍ ينبح الأضياف دونى ... أحب إلىّ من هزّ الدفوف
وخرق من بنى عمى ثقيف ... أحبّ إلىّ من عِلْج(1) عنيف

فقال معاوية : ما رضيت ابنة بجدل حتى جعلتنى عِلْجاً ، فالحقى بأهلك .

فمضت إلى كلب ، ومعها ابنها يزيد .

مع ابنه يزيد :

غضب معاوية يوماً من ابنه يزيد ، فاستدعى الأحنف بن قيس ، ثم قال له :

ـ ياأبا بحر ، ما تقول فى الولد ؟

فقال : ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنا ، ونحن لهم أرض ذليلة ، وسماء ظليلة . فإن طلبوا فأعطهم .

وإن غضبوا فأرضهم ، يمنحوك ودهم ، ويحبوك جهدهم ! ولا تكن عليهم ثقلاً فيملوا حياتك ، ويحبوا وفاتك ! فقال معاوية : لله درك ياأحنف !

لقد دخلت على وإنى لمملوء غضباً على يزيد ، فسلّلته من قلبى !

(*) الأغانى للأصفهانى ، وَدُرّة الغواص للحريرى .
(1) العِلج : كل جاف شديد من الرجال .

من حيل معاوية

«كانت أرينب بنت إسحاق من الجميلات اللاتى أبدع الله خلقهن ، ولقد منحها الله ـ سبحانه ـ كما لا وما لا وشرفا ، وقد تزوجها ابن عمها عبد الله بن سلام القرشى، وكان من معاوية بن أبى سفيان بالمنزلة الرفيعة فى الفضل ، ولكن يزيد ابنه كان قد وقع فى حبها ، فشكا أمره إلى أبيه معاوية ، فنصحه معاوية بقوله : مهلاً يايزيد ، فتملك يزيد العجب وقال : علام تأمرنى بالمهل ، وقد انقطع منها الأمل؟! فقال له معاوية : فأين عقلك ومروءتك وتقاك؟ فقال يزيد : يغلب الهوى على الصبر والحِجَا !!

فلم ير معاوية بدأً من إجابة طلب ابنه يزيد فى أخذ الحيلة والنظر !

فكتب إلى عبد الله بن سلام ، وكان قد استعمله على العراق : أن أقبل حين تنظر فى كتابى هذا لأمر حظك فيه كامل ، ولا تتأخر عنه .

فشد الرحال إليه حتى أقبل عليه ، وكان عند معاوية أبو هريرة وأبو الدرداء صاحبا رسول الله ـ ﷺ ـ فأمر معاوية أن ينزل منزلاً قد هيىء له ، وأعد له فيه نزله .

ثم قال لأبى هريرة وصاحبه : قد بلغت لى ابنة أردت إنكاحها ، والنظر فى تبعل من يريد أن يباعلها . لعل من يكون بعدى يهتدى منه بهديى، ويتبع فيه أثرى ، فإنى تخوفت أن يدعو من يلى هذا الأمر من بعدى زهوة السلطان وسرفه إلى عضل نسائهم ، وألا يرون لهن فيمن ملكهن أمره كُفْئًا ولا نظيراً .

وقد رضيت لها عبد الله بن سلام لدينه وفضله ومروءته وأدبه .

فقال أبو هريرة وأبو الدرداء : إن أولى الناس برعاية أنعم الله وشكرها ، وطلب مرضاته فيها فيما خصه به منا أنت صاحب رسول الله وكاتبه !

---

(١) أى امرأة أيمن .

فقال معاوية : اذكراله ذلك عنى ، وقد كنت جعلت لها فى نفسها شورى غير أنى أرجو أنها لا تخرج من رأى إن شاء الله .

فلما خرجا من عنده متوجهين إلى منزل عبد الله بن سلام بالذى قال لهما ، دخل معاوية إلى ابنته فقال لها : إذا دخل عليك أبو هريرة وأبو الدرداء ، فعرضا عليك أمر عبد الله بن سلام ، وإنكاحى إياك منه ، ودَعَواك إلى مباعلته ، وحَضّاك على ملاءمة رأيى ، والمسارعة إلى هواى ، فقولى لهما : عبد الله بن سلام كفء كريم ، وقريب حميم غير أن تحته أرينب بنت إسحاق ، وأنا خائفة أن يعرض لى من الغيرة ، ما يعرض للنساء ، فأتولى منه ما أسخط الله فيه ، فيعذبنى عليه ، فأفارق الرجاء ، وأستشعر الأذى ، ولست بفاعلة حتى يفارقها !

فذكر ذلك أبو هريرة وأبو الدرداء لعبد الله بن سلام ، وأعلماه بالذى أمرهما معاوية .

فلما أخبراه سر وفرح ، وحمد الله عليه ، ثم بعثهما خاطبين عليه .

فلما قدما قال لهما معاوية : قد تعلمان رضائى به ، وحرصى عليه ، وقد كنت أعلمتكما بالذى جعلت لها فى نفسها من الشورى ، فادخلا إليها ، واعرضا عليها الذى رأيت لها . فدخلا عليها وأعلماها بالذى ارتضاه لها أبوها ..

فقالت لهما كالذى قال أبوها ، فأعلماه بذلك فلما ظن أنه لا يمنعها منه إلا أمرها ، فارق زوجته وأشهدهما على طلاقها ، وبعثهما خاطبين إليه أيضاً .

فخطبا وأعلما معاوية بالذى كان من فراق عبد الله بن سلام امرأته طلاباً لما يرضيها وخروجاً عما يشجيها .

وهنا أظهر معاوية كراهة لفعله ، وقال : ما أستحسن له طلاق امرأته ولا أحببته ، ولو صبر ، ولم يعجل لكان أمره إلى مصيره ، فإن كون ما هو كائن لا بد منه ، ولا محيص عنه ، ولا خيرة فيه للعباد ، والأقدار غالبة ، وما سبق فى علم الله جارٍ فيه ، فانصرفا فى عافية ، ثم تعودان إلينا فيه ، وتأخذان إن شاء الله رضانا .

ثم كتب إلى يزيد ابنه يعلمه بما كان من طلاق أرينب بنت إسحاق .

فلما عاد أبو هريرة وأبو الدرداء إلى معاوية أمرهما بالدخول عليها ، وسألاها عن رضاها تبرياً من الأمر ، ونظراً فى القول والعذر ، فيقول :

لم يكن لى أن أكرهها ، وقد جعلت لها من الشورى فى نفسها .

فدخلا عليها ، وأعلماها بالذى رضيه إن رضيت هى : وبطلاق عبد الله بن سلام امرأته أرينب طلاباً لمسرتها ، وذكرا من فضله ، وكمال مروءته ، وكريم محتدة .

فقال لهما : جف القلم بما هو كائن ، وإنه فى قريش لرفيع ، غير أن الله ـ عز وجل ـ يتولى تدبير الأمور فى خلقه ، وتقسيمها بين عباده حتى ينزلها منازلها فيهم ، ويضعها على ما سبق فى أقدارها ، وليست تجرى لأحد على ما يهوى ، ولو كان لبلغ منها غاية ما شاء .

وقد تعرفان أن التزويج هزله جد ، وندم النادم عليه يدوم ، والعثور فيه لا يكاد يقوم ، والأناة فى الأمور أوفق لما يخاف فيها من المقدور ، فإن الأمور إذا جاءت خلاف الهوى بعد التأنى فيها كان المرء بحسن العزاء خليقاً ، وبالصبر عليها حقيقاً ، وعلمت أن الله ولى التدبير ، فلم تلم النفس على التقصير ، وإنى بالله أستعين سائلة عنه حتى أعرف دخيلة خبره ، ويصح لى الذى أريد علمه من أمره ومستخيرة ، وإن كنت أعلم أنه لا خيرة لأحد فيما هو كائن فعلمتكما بالذى يرينيه الله فى أمره ، ولا قوة إلا بالله .

فقالا : وفقك الله ، وخار لك ، ثم انصرفا .

فلما أعلماه بقولها تمثل بقول القائل :

فإن يك صدر هذا اليوم ولّى فإن غداً للناظريـــــن قريب !

وتحدث الناس بالذى كان من طلاق عبد الله امرأته قبل أن يفرغ من طلبته ، وقبل أن يوجد له الذى كان من بغيته ! ولم يشكوا فى غدر معاوية إياه !

فاستحث عبد الله بن سلام ، أبا هريرة وأبا الدرداء وسألهما الفراغ من أمره فأتياه فقالا لها :

قد أتيناك لما أنت صانعة فى أمرك ، وإن تستخيرى الله يخر لك فيما تختارين ،

فإنه يهدى من استهداه ، ويعطى من اجتداه وهو أقدر القادرين .

قالت : الحمد لله الذى أرجو أن يكون قد خار لى ، فإنه لا يكل إلى غيره من توكل عليه ، وقد استبرأت أمره ، وسألت عنه فوجدته غير ملائم ولا هو بموافق لما أريد لنفسى مع اختلاف من اشتشرته فيه ، فمنهم الناهى عنه ، ومنهم الآمر به ، واختلافهم أول ما كرهت من الله .

فعلم عبد الله أنه خدع ، واشتد عليه الهم والحزن »[1] .

وهكذا يفعل الدهاء !

(١) للقصة بقية نقلها صاحب أعلام النساء عن الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة ، ونفحات الأوراق لابن حجة الحموى .

◘ دروس فى الدهاء[1] والحلم ◘

◄ معاوية وأبو هوذة الباهلى :

قال معاوية لأبى هوذة الباهلى :

«لقد هممت أن أحمل جمعاً من باهلة فى سفينة ثم أغرقهم !

قال أبو هوذة :

إذن لا ترضى باهلة بعدّتهم من بنى أمية !!

قال : اسكت أيها الغراب الأبقع !ـ وكان به برص !

قال أبو هُوذة : إن الغراب ربما درج إلى الرّخَمة[2] حتى ينقر دماغها ، ويقتلع عينيها !

فقال يزيد : ألَا تقتله ياأمير المؤمنين .

قال : مَهْ[3] .

ونهض معاوية ثم وجهه فى سَرِيّة فقتل .

فقال معاوية ليزيد : هذه أخفى وأصوب[4] .

◄ معاوية وعمرو :

قال معاوية لعمرو : أنت أدهى أم أنا ؟

قال عمرو : أنا للبديهة ، وأنت للأناة .

---

(١) أورد الآبى صاحب نثر الدر باباً عنوانه : الحيل والخدائع اخترت لك منه ما يتعلق بالدهاة الأربعة فى الإسلام لتتبين كيف كانوا يتصرفون فى المواقف المختلفة ، وأيهم كان أكثر دهاء ؟ وعليك أن تسائل نفسك : ماذا تفعل لو كنت مكانه ؟!

(٢) الرخم : طائر غزير الريش أبيض اللون مبقع بسواد له منقار طويل .

(٣) مَهْ : اكفُفْ ـ اسم فعل . القاموس .

(٤) الحيوان : [٤٢٨/٣] .

قال : كلا .

قال عمرو : أَدْن منى رأسك أسَارّك .

فأدنى رأسه ، فقال عمرو : هذا من ذاك .. هل هٰهنا أحد غيرك !!

◄ حلم معاوية ودهاؤه :

قال قوم من قريش : ما نظن أن معاوية أغضبه شيء قط .

فقال بعضهم : إن ذكرت أمّه غضب .

فقال مالك بن أسماء المنى القرشى ـ وهى أمه ـ وإنما قيل لها أسماء المنى لجمالها : والله لأغضبنّه إن جعلتم لى جُعْلاً .

فجعلوا له جُعلا ، وأتاه وقد حضر الموسم فقال : ياأمير المؤمنين ، ما أشبه عينيك بعينى أمك !

قال : تلك عينان طالما أعجبتا أبا سفيان . يابن أخى ؛ خُذْ جُعْلك ، ولا تتخذنا متجراً !!

ثم دعا معاوية مولاه سعداً فقال له : أعْدِد لأسماء المنى دية ابنها ؛ فإنى والله قتلته وهو لا يدرى .

ورجع الغلام ، فقال له رجل منهم :

إن أتيت عمرو[1] بن الزبير فشبهته بأُمّه فلك ضعفا جُعلك فأتاه فقال له : يابن الزُّبير ؛ ما أشبه وجهك بوجه أمك ! فأمر به فضُرِب حتى مات .

فبعث معاوية إلى أمه بديته وقال :

أَلَا قُلْ لأسماءَ المنى أُمِّ مالك فإنى لعمرُ الله أقتلُ مالكاً[2]

◄ شخصية معاوية :

لم يكن معاوية رجلاً عادياً بل زعيماً من دهاة العرب ، وكان يمتاز بينهم جميعاً

---

(١) عمرو بن الزبير بن العوام ، كان مع الأمويين على أخيه عبد الله ، وكان مهيباً مَحْشيّ الجانب، ظفر به أخوه وسجنه إلى أن مات بعد سنة ٦٠ هـ . تاريخ الإسلام : [٥٤/٤] .

(٢) فى المحاسن والمساوىء : [٣١٣/٢] : أهلكت مالكاً .

بأنه من رجال السياسة العارفين بها .

وكان حليماً لا يثور ، ولا يترك للغضب سبيلاً إلى نفسه .

وأهم ما يمتاز به معاوية أنه يفهم الطبيعة البشرية ويعامل كل إنسان وكل مجموعة بما يلائمها ، ويحاول دائماً أن يكسب الأعداء إلى جانبه بالمال والمنصب أو بغيرهما من المغريات ، فإن عجز عن استمالتهم فهو أقدر الناس على القضاء المبرم عليهم فلا تقوم لهم قائمة .

بعد كل هذا لا يبالى أى طريق يسلك فى سبيل الوصول إلى أهدافه ..

وكان أكبر ما ساعده على ضبط الأمن وحسن الإدارة اعتماده على دهاة العرب أمثال «عمرو بن العاص» و «المغيرة بن شعبة» و «زياد بن أبيه» ، وكان يتألفهم ويطلب ولاءهم بشتى الطرق وليس أدل على ذلك من أنه وهب «عَمْراً» خراج مصر فى مقابل ما قام به من مساندة .

◄ صفات معاوية التى أهّلته للنجاح !

إن الباحث عن صفات معاوية التى أهّلته للنجاح فى المنصب الكبير الذى تولاه يجد أنه كان لديه رصيد كبير ملموس من الحزم والسماحة مما لا يستغنى أى حاكم عن التحلى بهما ، فمنصب الحاكم يحتاج إلى حزم أحياناً ، وإلى سماحة أحياناً أخرى .

فقســا ليزدجــروا ومَنْ يَكُ حا زماً فليقسُ أحياناً على من يرحمُ

وقد كان معاوية موهوباً فى الناحيتين .

◄ نماذج من حلمه :

ومن حلمه : أنه قال يوماً لقيس بن سعد بن عبادة : ياقيس !، والله ما كنت أود أن تنكشف الحروب التى كانت بينى وبين على وأنت حى !

فأجاب قيس : والله إنى كنت أكره أن تنكشف هذه الحروب وأنت أمير المؤمنين !

---

(١) القِرى : ما يقدم للضيف .

فلم يقل له شيئاً !!، ولكننا لا ينبغى أن يتملكنا العجب .. أليس هو القائل :

إنى لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى .. ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى !

ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت .. كانوا إذا شدوها أرخيتها .. وإذا أرخوها شددتها » .

◄ فلسفة معاوية فى معاملة الخصوم :

ويروى المبرد فى «الكامل» فلسفة معاوية فى معاملة خصومه فيقول :

«إنى لا أحمل السيف على من لا سيف له !

وإن لم تكن إلا كلمة يَشْتفى بها مُشْتَفٍ جعلتها تحت قدمى ، ودَبْر أذنى»[1] .

ووصفه عبد الله بن عباس فقال :

ما رأيت أليق من أعطاف معاوية بالملك والرياسة !

ومر عبد الملك بن مروان بقبر معاوية ، فأكثر الترحم عليه .

فقيل له : قبر من هذا ؟

فأجاب : «قبر رجل كان ـ والله ـ ينطق عن علم ، ويسكت عن حلم . كان إذا أعطى أغنى ، وإذا حارب أفنى»[2] .

ويروى عن معاوية قوله :

«إنى لأرفع نفس عن أن يكون ذنب أعظم من عفوى، وجهل أكثر من علمى ، أو عورة لا أداريها بسترى ، أو إساءة أكثر من إحسانى[3] .

وقوله : ما من شيء ألذ عندى من غيظ أتجرعه

◄ مبتكرات معاوية فى خلافته :

وقد ابتكر معاوية فى خلافته أشياء لم يُسْبق إليها :

---

(١) ابن عبد ربه العقد الفريد .

(٢) الفخرى لابن طباطبا [ص ٩٥ ـ ٩٦] .

(٣) الطبرى [جـ ٤ ص ٢٤٨] .

* فهو الذى أمر أن ترفع الحِراب بين يديه .

* وهو الذى وضع المقصورة ليصلى بها فى المسجد ليأمن هجمات الأعداء حين صلاته !

وقد كان ذلك بسبب قتل عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ، وهما يصليان[1] .

* ومن مبتكرات معاوية ترقية نظام البريد بحيث كانت الخيل المضمرة تقف مستعدة فى مراكز على طول الطريق ، فيركب صاحب البريد واحداً منها ، ويسرع به حتى يصل إلى محطة أخرى ، فيستبدل به غيره ، ويتركه ليستريح .. وهكذا !

* وأنشأ كذلك ديوان الخاتم[2] .

◘ معاوية يطلب من ضِرار وصف علىّ ◘ ويستزيده كل ما وعاه من كلامه !

يحدثنا المسعودى فى «مروجه» عن ذلك فيقول :

دخل ضرار بن ضمرة ـ وكان من خواصّ على ـ على معاوية وافداً ، فقال له : صف لى علياً .

قال : أعفنى ياأمير المؤمنين .

قال معاوية : لا بد من ذلك .

فقال : أما إذا كان لابد من ذلك ، فإنه كان والله بعيد المدى ، شديد القُوَى ، يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً .

يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه !

---

(١) الطبرى [جـ ٤ ص ٩٤]

(٢) الطبرى [جـ ٤ ص ٩٤] ، وصبح الأعشى [جـ ١٤ ص ٣٦٨] ، وتاريخ الخلفاء للسيوطى [ص ٢٠٠] .

يعجبه من الطعام ما خشن ، ومن اللباس ما قصر .

وكان ـ والله ـ يجيبنا إذا دعوناه ، وكنا ـ والله ـ على تقريبه لنا وقربه منا ـ لا نكلمه هيبة له ، ولا نبتدئه لعظمه فى نفوسنا .

يبسم عن ثغر كاللؤلؤ المنظوم .

يعظم أهل الدين ، ويرحم المساكين .

ويطعم فى المسغبة يتيماً ذا مقربة ، أو مسكيناً ذا متربة يكسو العريان ، وينصر اللهفان .

ويستوحش من الدنيا وزهرتها، ويأنس بالليل وظلمته .

وكأنى به وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومُه ، وهو فى محرابه ، قابض على لحيته ، يتململ تململ السليم[1] ، ويبكى بكاء الحزين ، ويقول :

يادنيا غرى غيرى !!، ألى تعرضت؟ أم إلى تشوّفت ؟ !

هيهات هيهات !!.. لا حان حينك ، قد أبنتُك ثلاثاً لا رجعة لى فيك .. عمرك قصير ، وعيشك حقير .. وخطرك يسير .

آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق !!

فقال معاوية : زدنى شيئاً من كلامه . ويواصل ضرار حديثه حتى إذا توقف قال معاوية : زدنى كل ما وعيته من كلامه .

فيقول ضرار : هيهات أن آتى على جميع ما سمعته !

وهكذا كان معاوية كالإسفنجة يمتص الآراء والأفكار من كل نبع !!

---

(١) السليم : اللدوغ .

◘ ماذا كان موقف الناس من معاوية ؟! ◘

ولقد وقف الناس منه بين مادح وقادح !

وقد ألف ابن حجر الهيثمى كتاباً سماه : «تطهير الجنان واللسان عن التفوه بثَلْب سيدنا معاوية بن أبى سفيان» ومن ثقاة المؤلفين أبو بكر بن العربى الذى ألف كتاباً سماه : «العواصم من القواصم فى تحقيق مواقف الصحابة» .

برّأ فيه معاوية ، ودافع عنه فى غير إسراف ولا غلو كما فعل ابن حجر .

ومهما يكن من شيء فإن معاوية قد شغل حِقْبة تاريخية من أَجَلّ الحِقب ، وأغناها بالحوادث والأخبار !

لقد كان معاوية رجل دنيا ، والرجل الذى يحب الدنيا يحتال لها ، فى غير يأس ولا ملل إن فاتته حيلة ، التفت يُدَبّر حيلة أخرى !

وإنه ليسيطر علىّ فى إعداد هذا الكتاب قول الله تعالى : ﴿ **تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولاتُسْأَلون عما كانوا يعملون** ﴾ [البقرة : ١٤١] .

ومن أجل هذا حرصت كل الحرص ألا أكون قاضياً أحكم لهذا أو ذاك ، فتلك الفتنة الكبرى قال فيها مشايخنا : إنها : «فتنة طهر الله منها سيوفنا أفلا نُطَهِّر منها ألسنتا ؟!» . لم يبق إذن إلا أن أُجْلوَ صورة «معاوية» فى مرآة بعض المؤرخين والكتاب بحثا عن مقومات شخصيته التى انتصر بها وقاد المسيرة ، وأولها الدهاء !!

◘ معاوية فى مرآتهم ! ◘

* قال ابن عباس :

«ما رأيت أحداً أحلى للملك من معاوية !»[1] .

* ويقول البغوى :

«كان عمر إذا نظر إلى معاوية قال : هذا كسرى العرب !»

وذكر ابن سعد عن المدائنى قال :

* نظر أبو سفيان إلى معاوية وهو غلام فقال :

إن ابنى هذا لعظيم، وإنه لخليق أن يسود قومه .

فقالت هند : قومَه فقط ؟!

ثكلتُه إن لم يَسُدْ العربَ قاطبة !!

* وقال المدائنى : كان زيد بن ثابت يكتب الوحى ؛ وكان معاوية يكتب للنبى ـ ﷺ ـ فيما بينه وبين العرب .

◘ معاوية من وجهة نظر عمر الرجل الأقوى !! ◘

لما عزل عمرُ بن الخطاب شُرَحبيل بن عبد الله[2] ، واستعمل معاوية بن أبى سفيان مكانه ، جاء شُرَحْبيل ، وقال له : عن سُخْطٍ[3] عزلتنى ياأمير المؤمنين ؟!!

قال : لا إنك لَكَما أحِبُّ ، ولكنى أريد رجلاً أقوى من رجل !

---

(١) أخرجه البيهقى فى الدلائل ، وفى تاريخ البخارى ، عن معمر عن همام بن منبه .

(٢) هو الصحابى الجليل شرحبيل بن حسنة ـ وهى أمه ـ واسم أبيه عبد الله . أسلم قديماً ، وهاجر إلى الحبشة هو وأخوه ، وكان من وجوه قريش ، وكان والياً على الشام لعمر ، وتوفى سنة ١٨ هـ أسد الغابة .

(٣) السَّخط والسخطة : الكراهية وعدم الرضا .

فقال شرحبيل : قُمْ فاعذُرنى[1] فى الناس ، لا تدركنى هُجْنة[2] !

فقام عمر فى الناس خطيباً فقال : «أيها الناس ، إنى ـ والله ـ ما عزلت شُرَحْبيلَ عَن سَخْطَةٍ ، ولكنى أردت رجلاً أقوى من رجل» .

◘ معاوية فى مرآة عمرو بن العاص ◘

لا يعرف «الداهية» إلا «الداهية» ، فإذا ما وصف عمرو بن العاص معاوية ، فإنه يكشف لنا عن لون من دهائه .

روى الجاحظ فى «البيان والتبيين» قال :

قال عمرو بن العاص : ما رأيت معاويةَ قطّ متكئاً على يساره ، واضعاً إحدى رجليه على الأخرى ، كاسراً إحدى عينيه يقول للذى يكلمه : يا هَنَاة[3] !، إلّا رحمت الذى يكلمه !!

◄ رأى مؤرخى العرب فى معاوية :

كان معاوية داهية من دُهاة العرب ومن أوفرهم حظاً فى السياسة ، وفى ذلك يقول صاحب الفخرى[4] :

كان معاوية عاقلاً فى دنياه ، لبيباً ، عالِماً ، حليماً ، ملكاً قوياً جيد السياسة ، حسن التدبير لأمور الدنيا ، عاقلاً حكيماً ، فصيحاً ، بليغاً ، يحلم فى مواضع الحلم ، ويشتد فى موضع الشدة ، إلا أن الحلم كان أغلب عليه ، وكان كريماً باذلاً للمال ، محباً للرياسة ، مشغوفاً بها ، كان يُفَضِّلَ على أشراف رعيته كثيراً ، فلا

---

(١) أى أظهر عذرى بين الناس ، وبين لهم أنه لم يكن عزلى بسبب ارتكابى ما يشين .

(٢) لا يلحقنى عيب ومعرة .

(٣) ياهناة ! كلمة كانت العرب تقولها عند إرادة التكبر ، كأنها تقول : ياشىء .
والهناة : كناية عن الرّجُل . يقال : ياهناةُ أقبل . وياهناةُ أقبل . ولا يستعمل إلا فى النداء .

(١) الفخرى [ص ٩٩ ـ ١٠٠] .

يزال أشراف قريش ـ مثل عبد الله بن العباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن جعفر الطيار ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن أبى بكر ، وأبان بن عثمان بن عفان ، وناس من آل أبى طالب ـ رضى الله عنهم ـ يفدون عليه بدمشق فيكرم مثواهم ، ويحسن قِراهم ، ويقضى حوائجهم ، ولا يزالون يحدثونه أغلظ الحديث ، ويجبهونه أقبح الجبه ، وهو يداعبهم تارة ، ويتغافل عنهم أخرى ، ولا يعيدهم إلا بالجوائز السنية ، والصِّلات الجمة .

وقد وصف لنا «معاوية» الأستاذ نيكلسن فى كتابه : تاريخ العرب الأدبى فى تلك العبارة : «كان معاوية سياسياً محنكاً لا يقل عن ريشيليو ، فقد مكنته معرفته التامة بالطبائع البشرية من أن يجذب إليه الرجال ذوى الآراء المعتدلة فى جميع الأحزاب المعارضة له .

وقد آتت هذه الصفات أُكُلَها طوال خلافته ، فبها استطاع أن يكبح جماح المسلمين عامة ، والخوارج خاصة وأن يسوس الأمة العربية سياسة تدل على الحكمة وحسن التدبير .

وبذلك أصبح ـ على ما ذهب إليه صاحب الفخرى ـ خليفة العالم ، وخضع له من أبناء المهاجرين والأنصار كل من يعتقد أنه أولى بالخلافة[1] .

▣ تقييم عهد معاوية أميراً وخليفة ▣

يقول ابن تيمية فى منهاج السنة :

«إن معاوية بقى فى الشام عشرين سنة أميراً ، وعشرين سنة خليفة ، ورعيته من أشد الناس محبة وموافقة له ، وهو من أعظم الناس إحساناً إليهم ، وتأليفاً لقلوبهم حتى قاتلوا «علىّ بن أبى طالب» ، وصابروا عسكره[2] إلى أن قاوموهم وغلبوهم ، قاتلوا مع معاوية لظنهم أن عسكر علىّ فيهم ظَلَمَةٌ معتدون عليهم ، كما اعتدوا على «عثمان» ، وأنهم يقاتلون دفعاً لصيالهم ، وقتال الصائل جائز ؛ ولهذا

---

(١) الفخرى : الآداب السلطانية [ص ١٠٠] .

(٢) صابره مصابرة وصباراً ؛ غالبه فى الصّبر ، وفى التنزيل العزيز : ﴿ اصبروا وصابروا ورابطوا ﴾ .

لم يبدءوهم بقتال حتى بدأهم أولئك .

ولهذا قال الأشتر النخعى :

إنهم ينصرون علينا ؛ لأننا بدأناهم بالقتال ، وعلىّ كان عاجزاً عن قهر الظلمة من العسكرية ، ولم يكن أعوانه يوافقونه على ما يأمر به ، وأعوان معاوية يوافقونه » ا . هـ

▣ أهلُ البَغْيِ والسّيف الذى سُلّ عليهم ! ▣

يقول الأستاذ محمد كرد على فى كتابه : الإسلام والحضارة العربية :

لا جرَم أن علياً اضطرته الحال إلى الوقوع فيما وقع فيه من قتال المسلمين ، وعمل ما عمل وهو كاره ، ولم يواته الحظ فى خلافته وكاد تفكيره ينحصر فى ردّ المطالبين بدم عثمان ، والناشزين على خلافته من الخوارج ، وأهل الشام وغيرهم ، ورأى انفراج قلوب الأمة بمقتل «عثمان» ، وأحس أكثر من غيره بما وقع من تشتت فى الأهواء ، وتأصل فى الأحقاد التى انتقلت من الأجداد إلى الأحفاد ، وما كان له مفزع غير السيف ، والسيف لا تؤمَن غائلته على الغالب والمغلوب ، وهو شر لابد منه !!

ولقد قالوا : إن فى القرآن أربعة سيوف[1] :

١ ــ سيف على «المشركين» حتى يسلموا أو يؤسروا ﴿ **فإما مَنًّا بعد وإما فداء** ﴾ [محمد : ٤] .

٢ ــ وسيف على «المنافقين» وهو سيف «الزنادقة» وقد أمر الله بجهادهم ، والإغلاظ عليهم فى «سورة براءة» ، و «سورة التحريم» و «آخر سورة الأحزاب» .

٣ ــ وسيف على أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية .

٤ ــ وسيف على أهل البغى وهو المذكور فى «سورة الحُجرات»[2] .

---

(١) الحكم الجديرة بالإذاعة لابن رجب .

(٢) فى قوله تعالى : ﴿ فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ﴾ [الحجرات : ٩] .

ولم يسل الرسول ـ ﷺ ـ هذا السيف فى حياته ، وإنما سله علىّ ـ رضى الله عنه ـ فى خلافته ، وكان يقول : أنا الذى علمت الناس قتال أهل القبلة . وله ـ ﷺ ـ سيوف أُخَر منها .

٥ ـ سيفه على أهل الرِّدّة ، وهو الذى قال فيه : «مَن بدل دينه فاقتلوه»[١]

وقد سله أبو بكر من بعده فى خلافته على من ارتد من قبائل العرب .

٦ ـ ومنها سيف على المارقين ، وهم أهل البدع كالخوارج ، وروى عن على أنه ـ ﷺ ـ أمر بقتال المارقين والناكثين والقاسطين[٢] .

وقد حرّق علىّ طائفة من الزنادقة ، فصوب ابن عباس قتلهم ، وأنكر عليه تحريقهم بالنار !، فقال على : «ويح ابن عباس لبحاث عن الهنات !» .

◘ محاولة لإنهاء الصراع ! ◘

يقول المؤرخون : إن ثلاثة من غُلاة الخوارج الموتورين اجتمعوا ذات يوم فتذاكروا القتلى من رفاقهم ، وتذاكروا القتلى من المسلمين عامة ، وألقوا وزر هذه الدماء كلها على ثلاثة : وهم ؛ على بن أبى طالب ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص !

قال عبد الرحمن بن ملجم أحد الثلاثة : أنا أكفيكم علىّ بن أبى طالب .

وقال عمرو بن بكر : أنا أكفيكم عمرو بن العاص .

وقال البرك بن عبد الله : أنا أكفيكم معاوية بن أبى سفيان وخرج الثلاثة متواعدين إلى ليلة واحدة يقتل كل منهم صاحبه فى ذلك الموعد !

فأما عمرو بن العاص ، فقد اشتكى بطنه تلك الليلة ، فلم يخرج من بيته ، وأمر خارجة بن حُذافة صاحب شرطته أن يصلى بالناس ، فضربه عمرو بن بكر وهو يحسبه عمراً فقتله .

---

(١) الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة وإسناده حسن ، وعن معاوية بن حيدة ورجاله ثقات [٢٦١/٦] .

(٢) أحمد [٢١٧/١ ، ٤٢٨٢/١ ، ٤٢٣١/٥] .

فقال عمرو : أردتنى وأراد الله خارجة . وأمر بقتله .

وأما « **معاوية** » فضربه البرك بن عبد الله ، وقد خرج الغداة للصلاة ، فوقعت الضربة على أليته .

وقيل : إن الطعنة المسمومة لا يشفيها إلا الكى بالنار ، أو شراب يمنع النسل . فجزع معاوية من النار ، ورضى انقطاع النسل ، وهو يقول : فى يزيد وعبد الله ما تَقَرُّ به عينى ، وأمر بالرجل فقتل لحينه .

وأما علىّ فضربه ابن مُلْجم فى جبينه بسيف مسموم ، وهو خارج للصلاة ، فمات بعد أيام ، وهو يحذر أولياء دمه من المثلة ويقول لهم : «يابنى عبد المطلب ، لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين ، تقولون : قتل أمير المؤمنين .. قتل أمير المؤمنين ألا لا يقتلن أحد إلا قاتلى» .

.. انظر ياحسن ! إن أنا مت من ضربته هذه ، فاضربه ضربة بضربة ، ولا تمثل بالرجل ؛ فإنى سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : «إياكم والمثلة ولو أنها بالكلب العقور»[1] .

(١) لم أقف عليه فيما بين يدى من مراجع !

▣ درس فى الدهاء لولى العهد ! ▣

كتب ابن الزبير إلى معاوية :

قد علمتَ أنى صاحب الدار ، وأنى الخليفة بعد عثمان ، ولأفعلنّ ولأفعلَنّ ، ولأفعلنّ !

فقال معاوية ليزيد : ماترى ؟!

قال : أرى ـ والله ـ أن لو كنتَ أنت وابن الزبير على سَواءٍ ، ما كان ينبغى أن ترضى بهذا !

قال : فما ترى ؟ قال : أرى أن توجه إليه جيشاً .

قال : إن أهل الحجاز لا يُسْلِمونه ، فكم ترى أن أوجه إليه ؟

قال : أربعين ألفاً .

قال : لهؤلاء دوابّ ، وكل دابة تحتاج إلى مِخْلاة ، فكم ثمن المخلاة ؟

قال : درهم .

فقال : هذه أربعون ألف درهم .

ثم قال : ياغلام ؛ اكتب إلى ابن الزبير : قد وجّه إليك أمير المؤمنين ثلاثين ألفاً فاستمتع بها إلى أن يأتيك رأيه..

فكتب إليه ابن الزبير : قد وصل إلينا المال ، فوصل أمير المؤمنين رحماً !

فقال معاوية ليزيد : قد ربحنا على ابن الزبير فى المخالى عشرة آلاف !!

◘ الداء والدواء .. ودرس آخر فى الدهاء !! ◘

كان لعبد الله بن الزبير أرضٌ قريبةٌ من أرض لمعاوية فيها عبيدٌ له من الزنوج يعمرونها ؛ فدخلوا فى أرض عبد الله !

فكتب إلى معاوية يقول :

أما بعد : فإنه يامعاوية ، إن لم تمنع عبيدك من الدخول فى أرضى ، وإلا كان لى ولك شأن !

فلما وقف معاوية على الكتاب دفعه إلى ابنه يزيد ، فلما قرأه ، قال له : ما ترى ؟!

قال : أرى أن تنفذ إليه جيشاً أوله عنده ، وآخره عندك يأتونك برأسه !

فقال : يابنى ، عندى خير من ذلك . عَلَيّ بدواةٍ وقرطاس ؛ وكتب :

وقفت على كتابك يابن حوارىِّ رسول الله ـ ﷺ ـ، وساءنى ـ والله ـ ما ساءك ، والدنيا هيّنة عندى فى جنب رضاك ، وقد كتبت على نفسى رقْماً بالأرض والعبيد ، وأشهدت علىّ فيه ، ولْتُضِف الأرضَ إلى أرضك ، والعبيدَ إلى عبيدك . والسلام .

فلما وقف عبد الله على كتاب معاوية ، كتب إليه :

وقفت على كتاب أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ فلا عُدِم الرأىَ الذى أحَلّه من قريش هذا المحل . والسلام .

فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله أعطاه ابنه يزيد، فلما قرأه ، اصفرّ وجهه !؛ فقال له معاوية :

يا بنى ، إذا رُمِيتَ بهذا الداء ، فداوه بهذا الدواء !!

إنه الدهاء !! لقد دفع معاوية الكتاب إلى يزيد ، ليرى رجحان عقله ، وحسن تدبيره فى علاج معضلات الأمور ، وليس هذا بغريب من معاوية وهو من هو سياسةً ودهاءً !!

ألم يقل : لو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت . فقيل له : وكيف ذلك ؟

قال : كنت إذا شدوها أرخيتها ، وإذا أرخوها شددتها ، وبهذا الدهاء ، كان له الغَلَب ، وآلت إليه الخلافة بعد على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ، وكان عبد الله بن الزبير سمحاً كريماً ، حين قبل العذر ، وهذا ما يجب أن يكون بين الناس فيما يحدث من أمور يسهل معالجتها ، فلا يأبى ذلك إلا لئيمٌ .

ترى هل يتذكر شعرة معاوية أولئك الذين يختصمون فى الريف على قيراط من الأرض قبل أن تسال لذلك دماء ، وتُزهق أرواح ؟!

وهل يتذكر شعرة معاوية أولئك الذين يثيرونها حرباً شعواء على الحدود ؟! من جهلنا نخطىء ، ومن أخطائنا نتعلم ؛ فهل آن الأوان لكى نتعلم ؟! إنه الدهاء !! كم داوى من أدواء !!

◄ ولاية العهد ليزيد :

أول ما يطرأ ببال الباحث ذلك السؤال : كيف بدأت الفكرة ؟

ولا شك أن معاوية طرأ له هذا الخاطر وتمناه لكنه لم يكشف عنه إلا حين نضجت الفكرة وهيّأ لها العقولَ والقلوب .

يقول التاريخ : كان «المغيرة بن شعبة» أول من أشار على معاوية بولاية العهد لابنه يزيد ؛ فعندما أراد معاوية أن يعزل المغيرة عن الكوفة سنة ٥٦ هـ بعد أن كبرت سنه ، ويستعمل عليها سعيد بن العاص ، وبلغ الخبر المغيرة استخدم دهاءه ، فذهب إلى الشام وقابل «يزيد بن معاوية» ، وقال له :

إنه قد ذهب أعيان أصحاب النبى ـ ﷺ ـ وآله ، وكبراء قريش وذوو أسنانهم ، وإنما بقى أبناؤهم ، وأنت من أفضلهم ، وأحسنهم رأياً ، وأعلمهم بالسنة والسياسة ، ولا أدرى ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة .

قال : «أَوَ ترى ذلك يتم ؟ قال : نعم !» .

ولما اختمرت الفكرة عند «يزيد» أعلم أباه بها ؛ فأحضر معاوية المغيرة ، وسأله عن هذا الأمر ، وما قاله يزيد ؛ فقال له : ما يقول يزيد ؟!

فقال : ياأمير المؤمنين ، قد رأيت ما كان من سفك الدماء ، والاختلاف بعد «عثمان» ، وفى «يزيد» منك خلف ، فاعقد له ، فإن حدث بك حادث كان

كهفاً للناس ، وخلفاً منك ، ولا تسفك دماء ، ولا تكون فتنة ، قال : ومن لى بهذا ؟

قال : أكفيك أهل الكوفة ، ويكفيك زياد أهل البصرة !

وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك[1] .

عند ذلك انشرح صدر معاوية للفكرة ، ورد المغيرة بن شعبة إلى الكوفة ، وعدل عن عزله ، وطلب منه أن يمهد لهذا الأمر ، فعاد إلى الكوفة ، وحبب إلى الناس هذا الأمر ، فبايع أنصار الأمويين ليزيد ، وأوفد المغيرة عشرة منهم إلى معاوية ، فزينوا له البيعة ليزيد ، وطلبوا منه أن يعهد إليه ، وبذلك قوى عزم معاوية على البيعة ليزيد .

◄ موقف زياد :

ولكن «زياداً» عندما أرسل إليه معاوية بهذا الشأن ، نصح له بالتريث فى هذا الأمر لعدم توافر شروط الخلافة فى يزيد ، وقال : «ويزيد صاحب رَسْلَة[2] ، وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد» .

وعاد الرسول إلى دمشق فأخبر «يزيدَ» برأى «زياد» فيه ، فكف عن كثير مما كان يصنع .

وتأنّى معاوية فى هذا الأمر عملاً بمشورة زياد .

◄ استطلاع رأى أهل المدينة :

فلما مات زياد أرسل معاوية إلى مروان بن الحكم عامله على المدينة يقول : «إنى قد كبرت سنى ، ودق عظمى ، وخشيت الاختلاف على الأمة من بعدى ، وقد رأيت أن أتخير لهم من يقوم بعدى ، وكرهت أن أقطع أمراً دون مشورة من عندك ، فاعرض ذلك عليهم ، وأعلمنى بالذى يردون عليك»[3] .

عرض «مروان» الأمر على الناس فوافقوا ؛ فأخبر معاوية بموافقتهم على المبدأ .

---

(١) ابن الأثير [جـ ٣ ص ٢١٤] .

(٢) الرَّسْلَةُ : مؤنث الرَّسْل وهو اللين والاسترخاء .

(٣) ابن الأثير [جـ ٣ ص ٢١٥] .

وهنا أرسل معاوية إلى «مروان» كتاباً يعزم فيه على البيعة لابنه «يزيد» ؛ فقرأه على الناس فى المسجد ، فهاج القوم وماجوا !!

فقال عبد الرحمن بن أبى بكر :

«ما الخيار أردتما لأمة محمد ، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقليّة ، كلّما مات هرقل قام هرقل» .

وقام الحسين بن على ، فأنكر ذلك ، وفعل مثله عبد الله بن الزبير[1] .

◄ ظهورُ حزب المعارضة الذى أنكر البيعة ليزيد :

ظهر حزب المعارضة الذى أنكر البيعة ليزيد ، وعلى رأسه عبد الرحمن بن أبى بكر ، والحسين بن على ، وعبد الله بين الزبير .

على أن معاوية لم يأبه لهذه المعارضة ، وكتب إلى عماله أن يمهدوا لبيعة يزيد فى الأنصار ، وأن يرسلوا إليه الوفود بدمشق لإعلان رضاهم عن تلك البيعة .

وقد تكلم فى هذه الوفود الضحاك بن قيس الفهرى ، ودعا لبيعة يزيد ، وتحققت سياسة معاوية ، فأعلن البيعة لابنه بعد ما خطبهم معاوية ، والضحاك بن قيس وغيرهما فى تعظيم الإسلام ، وحرمة الخلافة ، وفضل يزيد وعلمه بالسياسة ، وما يترتب على مبايعته من جمع كلمة المسلمين !

◄ أثر هذه السياسة :

ويظهر أن كثيراً من هؤلاء القوم لم يرضوا عن هذه السياسة ، فقد انبرى له رجل عرف بالصراحة ، لا يخشى فى الحق لومة لائم ألا وهو الأحنف بن قيس فقال :

نخافكم إن صدَقْنا ، ونخاف الله إن كذبنا . وأنت ياأمير المؤمنين أعلم بيزيد فى ليله ونهاره ، وسره وعلانيته ، ومدخله ومخرجه .

فإن كنت تعلمه لله وللأمة رضاً فلا تشاور فيه .

وإن كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة ، وإنما

---

(١) ابن الأثير [جـ ٣ ص ٢١٦] .

علينا أن نقول : «سمعنا وأطعنا»[1] .

على أن معاوية استعمل كل أنواع الحيل والدهاء . وكان «يعطى المقارب ، ويدارى المباعد ، ويلطف به حتى استوثق له أكثر الناس» . وبايعوا ابنه يزيد .

◄ سير معاوية إلى المدينة :

فلما تمت بيعة أهل الشام والعراق ذهب إلى المدينة لأخذ البيعة لابنه يزيد ، فقابله الحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، فأساء وفادتهم .

ثم دخل على عائشة أم المؤمنين فشكاهم إليها ، وهدد بقتلهم إن لم يجيبوه إلى بيعة يزيد ، فنصحت له أن يرفق بهم ، ويحسن معاملتهم ، فقبل النصيحة .

ثم عاد معاوية إلى المدينة ولقى عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، والحسين ابن على ، وأغدق عليهم الهبات ، وتكلم معهم فى شأن البيعة ، فقال ابن الزبير :

« نُخيرك بين ثلاث خصال . قال : اعرضهن . قال : تصنع كما صنع رسول الله ـ ﷺ ـ ، أو كما صنع أبو بكر ، أو كما صنع عمر .

قال معاوية : ما صنعوا ؟

قال : قُبض الرسول ـ ﷺ ـ ولم يستخلف أحداً ، فارتضى الناس أبا بكر .

قال : ليس فيكم مثل أبى بكر ، وأخاف الاختلاف قالوا : صدقت ، فاصنع كما صنع أبو بكر ، فإنه عهد إلى رجل من قاصية قريش ليس من بنى أبيه فاستخلفه .

وإن شئت فاصنع كما صنع عمر ، جعل الأمر شورى فى ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ، ولا من بنى أبيه . قال معاوية : هل عندك غير هذا ؟

قال : لا . ثم قال : فأنتم ؟ قالوا : قولنا قوله[2] .

قال : فإنى قد أحببت أن أتقدم إليكم أنه قد أعذر من أنذر ، إنى كنت أخطب

---

(١) ابن الأثير [جـ ٣ ص ٢١٦] .

(٢) وجاء فى رواية سعيد بن جبير أنه لما حج وذكر بيعة يزيد اجتمع الناس غير أربعة فلما تكلم ابن الزبير قال معاوية : تسمعون لى وتطيعون ؟ قالوا : نعم ، فخطب فقال : إن هؤلاء القوم قد بايعونى على ما أردت ، ثم انحدر فركب رواحله وانطلق فحسب الناس أنهم قد بايعوه !

منكم ، فيقوم إلى القائم منكم فيكذبنى على رءوس الناس ، فأحمل ذلك وأصفح ، وإنى قائم بمقالة ، فأقسم بالله لئن رد علىّ أحدكم كلمة فى مقامى هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه ، فلا يبقين رجل إلا على نفسه ؛ ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال : أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ، ومع كل واحد سيف ، فإن ذهب رجل منهم يرد علىّ كلمة تصديق أو تكذيب ، فيضرباه بسيفهما .

ثم خرج وخرجوا معه حتى رقى المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبتز أمر دونهم ، ولا يقضى إلا عن مشورتهم ، وأنهم قد رضوا ، وبايعوا ليزيد ، فبايعوا على اسم الله . فبايع الناس ، وكانو يتربصون بيعة هؤلاء النَّفَر ، ثم انصرف إلى المدينة ، فلقى الناس أولئك النفر ، فقالوا لهم : زعمتم أنكم لا تبايعون ، فلم رضيتم وأعطيتم ، وبايعتم ؟

قالوا : والله ما فعلنا .

فقالوا : ما منعكم أن تردوا على الرجل ؟

قالوا : كادنا ، وخفنا القتل[1] .

هكذا بايع الناس «يزيدَ» عدا هؤلاء النفر ، فقسا معاوية عليهم قسوة شديدة ، وخالف شروط الخلافة ، وانتقل بها من خلافة إسلامية شورية إلى ملكية وراثية .

(١) ابن الأثير [جـ ٣ ص ٢١٧ ـ ٢١٨] .

◘ معاوية والشعراء فى ولاية العهد ! ◘

جارى الشعراء السياسة فى تقلبها ودهائها ، فأيدوا الخليفة فى استخلاف من يليه .

ولما أراد معاوية البيعة لابنه يزيد تهيب ، وخاف ألا يرضاه الناس ، لأن فيهم من هو خير منه .

وبلغه فى ذلك كلام كرهه من سعيد بن العاص ، ومروان بن الحكم ، وعبد الله بن عامر .

فأوعز هو أو ابنه «يزيد» إلى «مِسكين الدارمى» أن ينتهز اجتماعهم عند معاوية هم وأشراف بنى أمية ، ويذكر بيعة يزيد ويؤيدها ، فلما اجتمعوا فى مجلس معاوية سنة ٥٦ هـ دخل مسكين الدارمى على معاوية ، ويزيد عن يمينه ، وبنو أمية حواليه ، وأشراف الناس فى مجلسه وقال[1] :

إنْ أُدْعَ مِسكيناً فإنى ابـــن مَعْشَرٍ ... من النـــاس أحمى عَنهُـــمُ وأذُودُ
ألا ليت شعرى مايقول بن عامر ... ومروان أم ماذا يقول سعيد ؟!
بنى خلفـاء الله مهـلاً فإنمـا ... يبوئهـا الرحمـن حيث يـريد
إذا المنبَـرُ الغربِـىّ خلّاه ربُّـه ... فإن أميـرَ المؤمـنين يزيـدُ
على الطائر الميمونِ والجَدّ صاعدٌ ... لكـل أنـاسٍ طائـرٌ وجُـدُودُ
فلازلتَ أعلى الناسِ كعبا ولا تَزَل ... وفـودٌ تساميها إلـيك وفـودُ
ولازال بيتُ الملك فوقك عاليـاً ... تُشَيّـد أطنـابٌ له وعمـود
قدور ابـن حَرْبٍ كالجوابى وتحتها ... أثـافٍ كأمثال الرِّئـال رُكُـود

* * * *

(١) الأغانى : [٨/٧١] .

فقال معاوية : ننظر فيما قلت يامسكين ، ونستخير الله . ولم يعارض أحد من الحاضرين !

ثم وصل معاوية ويزيد مسكيناً وأجزلا له الصلة .

◘ خطبة معاوية فى مبايعة يزيد ◘

ويتجلى دهاء معاوية أيضاً فى خطبته التى أخذ فيها البيعة لابنه يزيد عندما وفدت إليه وفود الأمصار سنة ٥٩ هـ بناء على دعوة منه وجهت إليهم .

فنراه يمهد لإعلان البيعة بأسباب توهم أنه لا يبتغى منها إلا صالح الشعب ؛ لأنه قد أحس ضعفه ، وأحس أن أجله قريب ، ومن أجل هذا فهو لا يريد أن يترك المسلمين بدون أن يستخلف عليهم ابنه يزيد ! ونراه يَرُدّ مسبقاً على من قد يسأله : لماذا لم تَدْعُ إلى الحفل : الحَسن والحُسين ؟! فيقول : إنه يعلم أنهما وَلَدَا على ، ولن تطيب نفسهما بهذه البيعة ، وليس من اللائق أن يدعوَهما لهذا الشأن على الرغم من حبه لهما وثقته بهما ويختم خطبته بمطالبتهم أن يوافقوه ، وها هى ذى خطبته :

قال معاوية :

« الحمد لله الذى أمرنا بحمده ، ووعدنا عليه ثوابه ، نحمده كثيراً كما أنعم علينا كثيراً .

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد ، فإنى قد كبر سنى ، ووهن عظمى ، وقرب أجلى ، وأوشكت أن أُدْعى فأجيب .

وقد رأيت أن أستخلف عليكم بعدى يزيد ، ورأيته لكم رضاً ، وأنتم عباهلة[1] قريش ، وخيارها ، وأبناء خيارها ! ولم يمنعنى أن أُحضِر حَسناً وحُسيناً إلا أنهما أولاد أبيهما ، علَى حُسْن رأيى فيهما ، وشديد محبتى لهما ! فردوا على أمير المؤمنين خيراً يرحمكم الله ! » .

---

(١) المراد : سادة مقرّون على سيادتهم .

◙ نهايةُ كُلّ حَيّ ◙

لما حضرت معاوية الوفاة قال لمولى له : من بالباب ؟
قال : نفر من قريش يتباشرون بموتك !

فقال : ويحك ، ولم ؟ قال : لا أدرى .
قال : فوالله مالهم بعدى إلا الذى يسوءهم ، وأذن للناس فدخلوا فحمد الله وأثنى ، ثم قال :

«أيها الناس ، إنا قد أصبحنا فى دهر عنود ، وزمن شديد ، يُعَدّ فيه المحسن مسيئاً ، ويزداد فيه الظالم عُتُوّاً .

لا ننتفع بما علمناه ، ولا نسأل عما جهلناه ، ولا نتخوف قارعة حتى تحل بنا ، فالناس على أربعة أصناف : منهم من لا يمنعه من الفساد إلا مهانة نفسه ، وكلال حده ، ونضيض وفره .

ومنهم المصلت بسيفه ، المجلب بخيله ورجله ، والمعلن بشَرّه ، قد أشرط نفسه ، وأوبق دينه لحطام ينتهزه ، أو مقنب يقوده ، أو منبر يقرعه ، ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة ، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا ، فقد طامن من شخصه ، وقارب خطوه ، وشمر من ثوبه ، وزخرف نفسه للأمانة ، واتخذ سر الله ذريعة للمعصية .

ومنهم من قد أقعده عن الملك ضئولة نفسه ، وانقطاع سببه ، لقصرت به الحال عن أمله ، فتحلى باسم القناعة ، وتزين بلباس الزهد ، وليس من ذلك فى مَرَاحٍ ولا مَغْدى .

وبقى رجال غض أبصارَهَم ذكرُ المرجع ، وأراق دموعَهم خوفُ المحشر ؛ فهم بين شريد نافر ، وخائف منقمع ، وسائق مكلوم ، وداعٍ مخلص ، وموجع ثكلان !

قد أخملتهم التقية ، وشملتهم الذلة ، فهم بحر أُجاج ، أفواههم ضامرة ، وقلوبهم قرحة .

قد وعظوا حتى ملّوا ، وقهروا حتى ذلوا ، وقتلوا حتى قلوا .
فلتكن الدنيا فى أعينكم أصغر من حثالة .

واتعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتعظ بكم من كان بعدكم ، فارفضوها ذميمة ، فإنها رفضت من كان أشغف بها منكم .

◙ وصية معاوية بن أبى سفيان ◙

لما حضرت معاوية الوفاةُ سنة ٦٠ هـ ، ويزيد غائب ، دعا معاوية مسلم بن عقبة المرىّ ، والضحّاك بن قيس الفِهرىّ فقال[١]: أبلغا عنى يزيدَ ، وقولا له :

● انظر إلى **أهل الحجاز** ، فهم أصلُك ، وعِتْرتُك ، فمن أتاك منهم ، فأكْرمه ، ومن قعد عنك ، فتعَهَّدْه .

● وانظر إلى **أهل العراق** ، فإن سألوكَ عزلَ عاملٍ لهم فى كل يوم فاعزله عنهم ؛ فإن عزل عامل أهون عليك من سلِّ مائة ألف سيف ، لا تدرى على من تكون الدّائرة !

● ثم انظر إلى **أهل الشام** ، فاجعلهم الشعار دون الدثار ؛ فإن رابَك من عدوك ريبٌ فارمه بهم !، فإن أظفرك الله بهم ، فاردد أهل الشام إلى بلادهم ، ولا يقيموا فى غير بلادهم فيتأدبوا بغير أدبهم .

لست أخاف عليك إلا ثلاثة :

«الحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر !

فأما الحسين بن على فأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه .

وأما الزبير ، فإنه خبٌّ ضبٌّ[٢] ، فإن ظفرت به فقطعه إرْباً إرْباً .

وأما ابن عمر فإنه رجل قد قرقره الورع فخلّ بينه وبين آخرته يُخَلّ بينك وبين دنياك»[٣] .

وهى وصية تدل على سداد رأيه ، وخبرته بالأمور ، ومعرفته بالرجال !

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ .

(٢) الخب بالفتح والكسر هو الرجل الخداع .

(٣) العقد الفريد لابن عبد ربه [جـ ٣ ص ١٣١ ـ ١٣٢]